

المسئلة الشرقية

﴿ تأليف المرحوم ﴾

مصطفى كامل باشا

الجزء الاول

﴿ الطبعة الثانية ﴾

« حقوق الطبع والنشر والترجمة »

محفوطة للورثة

سنة ١٣٢٦ هـ — ١٩٠٩ م

مطبعة « اللواء » بشارع الدواوين نمرة ٢٩ بمصر



مصطفى كامل باشا

في الرابعة والعشرين من عمره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه خير
الانبياء والمرسلين . (وبعد) فقد شهد هذا العام فوز الدولة
العلية في حربها مع اليونان فوزا عظيما وانتصارها نصرا ميينا
ورأى العالمون بين أصدقاء للدولة وأعداء براهين حياتها
ودلائل شبيبتها . فانتعشت نفوس أبنائها وأصدقائها وطمس
الله على قلوب خصومها وأعدائها حيث قضى لها بما قضى
من الفوز والنصر والسمو والرفعة

وقد طلب منى بعد انتهاء الحرب بعض أصدقاء يحسنون
الظن بشخصي الضعيف ان اكتب تاريخ هذه الحرب
الشهيرة فأجبت الطالب لاعن شعور بمقدرتي على ذلك بل
عن سرور جزيل وحبور نادر المثليل بما نالت الدولة العلية
حماها الله

وقد أحييت أن أقدم للقراء الكرام قبل تاريخ الحرب
ملخصاً عن المسئلة الشرقية التي هي موضوع اشتغال الشرقيين
والغربيين . واني أسأل القراء الكرام عذرا اذا كنت
اضطرت للايجاز في بيان المسئلة الشرقية فقد قضي على
الوقت بذلك . وأؤمل العودة لموضوعها في فرصة أخرى
مع بيان أوفى وأشفي

واني أضرع الى الله فاطر السموات والارض من فؤاد
مخلص وقلب صادق أن يهب الدولة العلية القوة الابدية
والنصر السرمدي ليعيش العثمانيون والمسلمون مدى الدهر
في سؤدد ورفعة . وأن يحفظ للدولة العثمانية حامي حماها
وللاسلام امامه وناصره جلالة السلطان الاعظم والخليفة
الاكبر الغازي (عليه السلام) وأن يحفظ لمصر في ظل جلالته
عزيزها المحبوب واميرها المعظم سمو الخديوي (عباس حلمي
باشا الثاني) ان ربي سميع مجيب

مصر في شعبان سنة ١٣١٥ - يناير سنة ١٨٩٨

(مصطفى كامل)

المسألة الشرقية

« ١ »

اتفق الكتاب والسياسيون على ان المسئلة الشرقية هي مسئلة النزاع القائم بين بعض دول أوروبا وبين الدولة العلية بشأن البلاد الواقعة تحت سلطانها وبعبارة أخرى هي مسئلة وجود الدولة العلية نفسها في أوروبا . وقد قال كتاب آخرون من الشرق ومن الغرب بأن المسئلة الشرقية هي مسئلة النزاع المستمر بين النصرانية والاسلام أى مسئلة حروب صليبية متقطعة بين الدولة القائمة بأمر الاسلام وبين دول المسيحية . الا أن هذا التعريف وان كان فيه شىء من الحقيقة فليس بصحيح تماما . لأن الدول التى تنازع الدولة العلية وجودها لاتعاديها باسم الدين فقط بل فى الغالب تعاديها طمعا فى نوال شىء من أملاكها . وقد أرانا التاريخ أحوالا كثيرة لم يستعمل الدين فيها الا سلاحا أو وسيلة لنوال غرض جوهرى فهو ستار تحتفى وراءه أغراض شتى

وأطماع مختلفة

والذى يراجع تاريخ الدولة العلية ويقطب صحائف
أمورها من أول وجودها الى اليوم يرى ان المسئلة الشرقية
نشأت مع الدولة نفسها . أى انه منذ وطأت أقدام الترك
ترى أوروبا وأسسوا دولتهم الفخمة قام بينهم وبين بعض
الدول الأوروبية النزاع الشديد ودارت الحروب العديدة
وبالجملة فانه منذ ظهرت صولة الترك فى أوروبا أخذت بعض
الدول على عهدتها معاداة الدولة ومطاردتها والعمل على
اخراجها من هاته القارة . ولكنها أعمال حبطت وآمال خابت
اذ أصبح أمر بقاء دولة آل عثمان من أول الامور الضرورية
اللازمة لسلامة بنى الانسان

وقد وهب الله الدولة العثمانية سلطة عالية ورهبة عظيمة
حينما طويلا من الزمان فأخضعت لسلطانها الامم والدول
وأرهبت بقوتها وعظمتها كل قوى وكل عظيم ورفعت رايتها
المهاللية الجليلة على أصقاع شاسعة وأقطار واسعة . فابقت
فتوحاتها وانتصاراتها فى نفوس الامم المقهورة بغضاء كامنة

وعداوة لدودة . فكان ذلك السبب الاول في الحروب
العديدة التي وجهت ضدها وأقيمت في وجهها

وذا كانت البلاد الواقعة تحت سلطة الدولة العلية من
أجل بلاد العالم وأغناها فقد تآقت نفوس أصحاب الدول
الاوربية لاخراج الترك من هذه البلاد وتقسيمها بينها .
فكانت هذه الدول تحارب الدولة العلية بأمل تقسيمها شيئاً
فشيئاً والاستيلاء على أجزاءها جزءاً فجزءاً . وهذا هو سبب
آخر لعداوة بعض الدول الاوربية للدولة العلية

واذا دققنا النظر في سبب العداوة المشهور وهو مسألة
الدين وجدنا ان الدولة العلية هي الدولة الوحيدة في دول
الارض التي عاملت رعاياها الذين يدينون بغير دينها بالتسامح
والتساهل والاعتدال . فقد اتبعت أوامر الشرع الشريف
وتركت للمسيحيين حرية دياناتهم وعوائدهم وتقاليدهم
واحترمت عقائدهم كل الاحترام فعاشوا طويلاً ممتعين بهاته
الحرية على حين ان مسيحي اسبانيا قتلوا المسلمين لانهم مسلمون
وهتكوا أعراض نسائهم وحرمة بيوتهم ومارحموا انسانا

ولم تكف الدولة العلية حماها الله بحسن معاملة المسيحيين واحترام أديانهم وعقائدهم بل عاملتهم كأعز أبنائها المسلمين ولم تميز بين هؤلاء وبينهم وسلكت مع الكل طريق المساواة وعينت الكثيرين من المسيحيين في المناصب السامية والوظائف العلية وأتمنتهم على أمورها وجعلتهم محل ثقتها وبقاء المسيحيين الى اليوم في الدولة العلية أكبر شاهد على اعتدالها الديني في الماضي وفي الحاضر بل بقاء الجنسيات المختلفة كالبلغار والصرب واليونان وغيرها دليل ساطع وبرهان قاطع على أن الدولة العلية احترمت من نفسها وبمحض ارادتها دين الذين وقعوا تحت سلطتها ولم تقهر أحداً على اعتناق الدين الاسلامي . ويعترف الكتاب والمؤرخون جميعاً بل ويعترف كل انسان في الوجود مجرد عن الغرض الاعمى ان الدولة العلية كان في قدرتها يوم كانت أقوى دول الارض أن تجبر كل المسيحيين في بلادها على اعتناق دين الاسلام أو أن تطردهم من أراضيها اذا خالفوا رغبتها . ولكنها احترمت الشرع الشريف فاحترمت الدين المسيحي وأصحابه

وهي حقيقة يقررها التاريخ وينطق بها كل منصف
محب لها . ولكن من غرائب أحوال هذا الوجود أن هذه
الفضيلة السامية . وهذه المكرمة الفريدة كانت أكبر سبب
لكل ما لحق الدولة العلية من الضرر والاجحاف وأصلا
لكل ما حل بها من المصائب والبلايا . فاحترامها لعقائد
المسيحيين على اختلاف أنواعهم أقام أمامها بعض دول أوروبا
بمحبة المسيحيين أنفسهم وكان سبباً لحروب جمة

فمسئلة اختلاف الدين في الدولة العلية التي هي نتيجة
الاعتدال الديني والعدل والانصاف كانت ولا تزال الداء
الدفين الذي يهدد حياة الدولة من وقت الى آخر . فتداخل
الدول الاوروبية في شؤون الدولة العلية باسم المسيحيين
المحكومين بها . ومضايقه أوروبا بالدولة باسم هؤلاء المسيحيين
واضطرابات الدولة تقوم باسم هؤلاء المسيحيين . والاندازات
التي توجه للدولة تزجه باسم هؤلاء المسيحيين بل وأغلب
الحروب التي جرت مع الدولة جرت باسم هؤلاء المسيحيين .
ويعلم الله أنهم سعداء الحظ في الدولة العلية وان تداخل أوروبا

بحجة نصرتهم لالزوم له البتة
ولو أنصفت الدول الأوروبية قليلا لاعترفت بهذه
الحقيقة الواضحة وهي ان المسيحيين في الدولة العلية لا ينقصون
عن المسلمين في حسن المعاملة ان لم يكونوا من الراجحين .
وهام اليهود لا يشورون ولا يهيجون ولا يشتكون ولا
يتألمون بل يحمدون الدولة ليلا ونهارا في السراء والضراء
ويسبحون في كل آونة بنعمها عليهم وحسن رعايتها لهم .
وما ذلك الا لأنه لا يوجد في الدول الأوروبية دولة تدعى
الدفاع عنهم والعمل لمصالحهم فهم ليسوا بآلات في الدولة
ضد الدولة بل هم يعرفون من أنفسهم أنهم عثمانيون ممتعون
بكل الحقوق العثمانية . وأما العناصر التي كالارمن تستعملها
بعض الدول كالكاترا فهي تشور بعوامل الدين وبدسائس
دينية . وقد ثبت ذلك جليا في المسئلة الارمنية وشوهد أن
الارمن الكاتوليك كانوا على سكينه تامه بينما كان البروستانت
يشورون ويدبرون المكائد ضد الحكومة العثمانية
فمسئلة الدين في الدولة العلية هي الآلة القوية التي

يستعملها أصحاب الدسائس والغايات وأولئك الذين يثورون
بدسائس أعداء الدولة انما يثورون ضد أنفسهم ويقضون على
حياتهم وسعادتهم بعبيتهم وجنودهم واتباعهم لأوامر أعداء
الدولة المحركين لهم . فالذين ماتوا من الارمن في الحوادث
الارمنية انما ماتوا فريسة الدسائس الانكليزية . والذين ماتوا
في كريد ماتوا فريسة الدسائس الانكليزية . بل والذين ماتوا
من جنود اليونان في تساليا ماتوا فريسة الدسائس الانكليزية
نفسها ومن يعمل بنصيحة أعداء الدولة ويتبع أوامرهم جزاؤه
مانال الارمن واليونان

وبديهي ان دولة مثل دولة انكلترا التي تدعى محبة
المسيحيين في الشرق والعمل لراحتهم وسعادتهم لو كانت صادقة
في دعواها لرأت من الواجب عليها أن تصافي الدولة العلية
حتى تنال منها متمناها بشأن المسيحيين . والا فمن الجنون في
السياسة أن تدعي انكلترا محبة المسيحيين ثم تعادي الدولة
العلية القابضة بيديها على زمام أمور المسيحيين . فهل يقبل
العقل البشري ان دولة قوية كالدولة العلية تعمل في بلادها

على خلاف رغبتها وتبيل أصدقاء الانكليز أى أصدقاء ألد أعدائها الراحة والسعادة والهناء؟ هل يقبل العقل البشرى ان المسيحيين المدافعة عنهم انكثرا يعادون المسلمين ثم يسألونهم معاملتهم بالركة واللفظ وحسن العناية بهم؟ ان الاتفاق والوافق بين المسلمين والمسيحيين فى الدولة العلية لا يكون نتيجة الضغط والقوة بل نتيجة الميل المتبادل وحسن النية من الحائنين والاخلاص والوفاء للدولة العلية . واذا كانت دول أوروبا تريد حقيقة سعادة المسيحيين فى الشرق فأول واجب عليها هو أن تأمرهم بالامثال لاوامر الدولة والتعلق بها والاخلاص فى خدمتها . والا فالدولة أو فالدول العاملة على القاء بذور الشقاق والعداوة بين المسلمين والمسيحيين لا تجنى ويستحيل أن تجنى شيئاً آخر غير العداوة المرة والخصومة الشديدة

وغنى عن البيان ان المسلمين فى الدولة العلية متى رأوا فريقاً من أخصائهم المسيحيين يعمل بأوامر الاجنبى عدوه خائناً للوطن العثماني ناكثاً لعهد الدولة العثمانية أى عدوه

دخيلاً في الوطن والملة والدولة . ووجب عليهم العمل ضده بكل ما في استطاعتهم قياماً بواجباتهم الوطنية . وهذا هو الشأن في أمم العالم فلو فرضنا أن فريقاً من الانكليز قام يوماً ما في انكلترا باحداث الاضطرابات والثورات تنفيذاً لاوامر دولة أجنبية كالروسيا أو المانيا أو فرنسا . فأى واجب تحتمه الوطنية عندئذ على بقية الانكليز أليس القضاء على هؤلاء الخونة المنفذين لاوامر دولة أجنبية بكل الوسائل القامون بالثورات والاضطرابات في الدولة العلية خونة منفذون لاوامر أعداء الدولة يجب على العثمانيين الصادقين اعلان العداة لهم والانتقام منهم بكل ما في الجهد والاستطاعة

ويستحيل الوصول كما قدمنا الى الاتفاق السليم الصحيح بين المسيحيين والمسلمين في الدولة العثمانية الا باخلاص الجميع لها اخلاصاً تاماً

هذه هي الحقيقة وحدها دون غيرها

واذا كان اختلاف الدين في الدولة العلية هو داء من

أدواؤها بل هو أكبر أدواؤها فالدخلاء في الدولة العلية داء
عضال وبنية لاتعادلها بلية . فإن الذين كانوا سبباً في هزيمة
الدولة في حروب مختلفة هم الدخلاء والذين ساعدوا الدسائس
الاجنبية هم الدخلاء . فقد دخل في جسم الدولة العلية كثير
من الاجانب نساء ورجالا وغيروا أسماءهم بأسماء اسلامية
وعملوا على الارتقاء في المناصب حتى وصل بعضهم الى أسماها
وصاروا من أقرب المقربين فعرضوا بالدولة للدمار وأطلعوا
أعداءها على أسرارها . وقد انتشر الدخلاء في الزمن السالف
الى كل فروع الدولة العلية حتى في الجيش نفسه وصارت لهم
سلطة عظيمة وتفوذ كبير وكنت تجد من وزراء الدولة العلية
من يعمل لصالح روسيا مدعياً انه روسي السياسة ومن يعمل
لصالح انكلترا مدعياً انه انكليزي السياسة ولكن ليس
منهم من كان عثمانى السياسة

ولولا أن الأمة العثمانية أمة حية قوية عظيمة الشهامة
والوطنية لكانت تلاشت اليوم بدسائس الدخلاء ولو كان
للدخلاء في دولة أخرى ما كان لهم في الدولة العلية من

السلطة والحول كانت تقوض بنيانها وتبدعت أركانها
وان أعظم سلطان جلس على أريكة ملك آل عثمان ووجه
عنايته لإبطال مساعي الدخلاء وتطهير الدولة من وجودهم هو
جلالة السلطان الخالي . فلقد تعلم من حرب سنة ١٨٧٧ وما
جرى فيها أن الدخلاء بلية البلايا في الدولة ومصيبة المصائب
فعمل بحكمته العالية على تبديد قوتهم وتربية الرجال الذين
يرفعون شأن الدولة ويعملون لأعلاء قدرها . وقد برهنت
الحرب العثمانية اليونانية على ان للدولة اليوم رجالا من
أبناءها الصادقين يخدمونها بالامانة والوفاء ويتفانون في محبتها
وأن ليس للدخلاء من سبيل لنوال ما آربهم السيئة . فأمثال
صاحب الدولة « أدم باشا » الذي كان مجهول الاسم عند
الكثيرين من العثمانيين قبل الحرب كثيرون في الدولة العلية
تظهرهم الحوادث وتعرفنا بهم وبقدرهم المشكلات
وان أغرب شيء في أحوال الدولة العلية وفي تاريخها
يدهش أعداءها ويحير الكتاب الكارهين لها هو بقاؤها
حية بعد كل المصائب التي تساقطت عليها والبلايا التي نزلت

بها . فلقد رأيت هذه الدولة العثمانية مالم تره دولة من دول
الأرض القديمة والحديثة فقد كانت تتحالف معها بعض
الدول كإنمسا مثلاً وتعمل وهي متحالفة معها على الاتفاق
مع روسيا على تقسيمها . وقد كانت تتظاهر انكترا لها
بالصداقة والوفاء وتسمى وهي متظاهرة كذلك على ضياع
أملها من يدها وسقوطها في قبضتها . وقد كانت دول
أوروبا كلها تجتمع وتتحد على ما تسميه بالمبدأ المقدس مبدأ
حماية استقلال الدولة العلية وسلامتها : ثم كانت هي بعينها
تجزئ الدولة العلية باسم هذا المبدأ المقدس نفسه .
وقد كان العاملون على تقويض أركان الدولة وحلها عديدين
أقوياء . ومع ذلك كله لا تزال الدولة العلية حماها الله قوية
ثابتة الأركان تخافها أقوى الدول ويخطب ودها امبراطور
شهد العالم كله بقوته وعظمته وبأسه

ولقد يندهش الإنسان غاية الاندهاش عند ما يقرأ
ما كان يكتب من نحو مائة وعشرين سنة عن الدولة العلية . فقد
كان الكتاب والسياسيون يتناقشون في مشروعات تقسيمها

فالبعض كان يريد أن يؤسس مكان الدولة العلية « الاتحاد البلقاني »
والبعض الآخر كان يريد إعادة ملك بيزانتان وكان سياسيو
الروسيا والنمسا يتباحثون في مشروع تقسيم الدولة بين دولتيهما
فكل كان يضع مشروعا والجميع كانوا متفقين على ان الدولة
قصيرة الاجل وأكثرهم أملا في حياتها كان يجود عليها في
مشروعه بعشرة من السنين أو عشرين عاماً . ولو بعث اليوم
من القبور كتاب أواخر القرن الماضي وسواسه ورأوا الدولة
العية قائمة عزيزة تحارب في أواخر القرن التاسع عشر وتنتصر
وتجتاز العقبات عقبه بعد عقبه وتصرف المصائب مصيبة بعد
أخرى لكذبوا أعينهم وما صدقوا بالحقيقة

ولكن الحقيقة هي ان بقاء الدولة العلية ضروري للنوع
البشرى وان في بقاء سلطانها سلامة أمم الغرب وأمم الشرق
وان الله جل شأنه أراد حفظ بنى الانسان من تدمير بعضهم
البعض ومن حروب دينية طويلة بحفظ سياج الدولة العلية
وبقاء السلطنة العثمانية . فقد لاقت هذه الدولة العثمانية في
حياتها الطويلة أخطاراً هائلة كانت تكفى لتداعي بنيان أقوى

الممالك . وصرت عليها ملات كانت تنك لها الدول القوية
والممالك القاهرة بدون أن تمس حياتها الحقيقية بسوء بل
بقيت حية تدهش العالم بشيبتها

وقد أحس الكثيرون في أوروبا من رجال السياسة
ومن رجال الاقلام أن بقاء الدولة العلية أمر لازم للتوازن
العام وان زوالها (لا قدر الله) يكون مجلبة للاخطار أكبر
الاخطار ومشعلة لنيران يمتد لها بالارض شرقها وغربها
شمالها وجنوبها . وان هدم هذه المملكة القائمة بأمر الاسلام
يكون داعية لثورة عامة من المسلمين وحرب دموية لا تعد
بعدها الحروب الصليبية الا معارك صيدانية

وان الذين يدعون العمل لخير النصرانية في الشرق
يعلمون قبل كل انسان أن تقسيم الدولة العلية أو حلها يكون
الضربة القاضية على مسيحي الشرق عموماً قبل مسلميه . فقد
أجمع العقلاء والبصيرون بعواقب الامور على أن دولة آل
عثمان لا تزول من الوجود الا ودماء المسلمين والمسيحيين
تجرى كالانهار والبحار في كل واد

وهي الملمة التي يجب على محبي الانسانية الصادقين في
محبتهم العمل لمنع وقوعها ودفعها بتعضيد الدولة العلية وتقوية
سلطانها

ولقد اعتقدت الآن الروسية كما اعتقدت النمسا
- وقد كانتا العدوتين القديمتين للدولة العلية - بأن تقسيم
الدولة العلية أمر مستحيل فملت كتاهما على المحافظة على
السلام العام بالمحافظة على سياج الدولة العثمانية
فقد رأت النمسا أن حروبها مع الدولة العلية أضرت
ضررا بليغا وظهرت النتائج المشؤومة لهذه الحروب . فقد
ضعفت النمسا وانتهى بها الامر أن فقدت أملاكها
الاطالية التي تكونت منها ايطاليا الحالية وفقدت كذلك أمام
بروسيا جزءا عظيما من مقاطعاتها الالمانية

ولقد عملت النمسا في عهد عدائها للدولة العلية على
تهييج أعم البلقان ضد السلطنة السنية باسم مبدأ الجنسيات
لأنها بصفتها دولة كاثوليكية كان لا يمكنها أن تهييج هذه الامم
الارثوذكسية باسم الدين . فكانت نتيجة تهييج النمسا لامم البلقان

باسم الجنسيات وبالإلها . وذلك ان مبدأ الجنسيات نفسه
وجد أنصاراً كباراً في قلب المملكة النمساوية فقامت المجر
ونالت حريتها واستقلالها النوعي باسم مبدأ الجنسية المجرية .
وهاهي أمة البوهيم قائمة اليوم بالمطالبة باستقلالها النوعي باسم
مبدأ الجنسية البوهيمية . وقد أصبح من الظاهر للعيان أن دولة
النمسا تنازع نزاع الموت في الأيام الحالية بفضل مبدأ الجنسية
أما روسيا فقد قامت دائماً في المسئلة الشرقية باسم
الدين الأرثوذكسي فعملت لإخراج الرومانيين واليونانيين
والصربيين والبلغاريين وأهل الجبل الأسود من تحت سلطة
الدولة العلية باسم الدين الأرثوذكسي . فنشأ عن ذلك مع
استقلال هذه الأمم الصغيرة عداوة شديدة بينها وبين
بعضها لما وجدت في نفسها من الطمع لتوسيع دائرة أراضيها
ذلك فضلاً عن أن الكنيسة اليونانية التي هي أم الكنائس
الأرثوذكسية أصبحت غير معتبرة عند البلغاريين والصربيين
والنزاع القائم بين هذه الجنسيات المختلفة في مقدونيا بين
جيداً درجة عداوتها لبعضها ودرجة الخطر الذي صارت إليه

بلاد البلقان يسبب مسألة الجنس والدين

وإذا بحثنا فيما اكتسبته روسيا من حروبها مع الدولة العلية نجد أنها عادت تركيا قرنا ونصف قرن وحاربته المرار العديدة وفقدت الرجال والمال بكثرة عظيمة في كل حرب . ولم تنل في الحقيقة من كل حروبها الا بلاد القرم والقوقاز . وقد رأت روسيا ما لم تكن تظنه أبدا وهو ان بعض البلاد الصغيرة التي حررتها كصربيا وبلغاريا واليونان ورومانيا عادت لها أشد العداة . ولا تزال صربيا ورومانيا واليونان سائرة في سياسة لا ترضى الروسية . وعلى الاخص رومانيا التي تمكن بينها وبين المانيا والنمسا والدولة العلية الصفاء والوداد ولم تعتدل بلغاريا نفسها في سياستها مع روسيا الا في هذه السنين الاخيرة من يوم اعتناق البرنس بوريس ولي عهد بلغاريا للدين الارثوذكسى

وقد رأت روسيا من جهة أن حروبها مع الدولة العلية لا تفيد غير انكارات التي قوى مركزها في آسيا وفي الشرق الاقصى والتي لها أعظم مصلحة في اضعاف قوة روسيا

واضاحتها الوقت والمال والرجال في حروبها مع الدولة العلية
ورأت كذلك من جهة أخرى انه يستحيل عليها أن تأخذ
الاستانة وتنفذ وصية بطرس الاكبر لما تلاقيه في القيام
بهذا الامر من قبل الدولة العلية ومن دول أوروبا نفسها
وفي مقدمتها فرنسا حليفها . ولذا فضلت روسيا الاهتمام
بمسائل الشرق الاقصى ومسئلة تركيا . وقد تحقق العثمانيون
من هذه المسئلة في المسئلة الارمنية وفي مسئلة الحرب الاخيرة
وقد شهد السياسيون بانه لا يوجد في تاريخ علاقات
الدولة العلية مع روسيا للمسئلة والصدائة مثل التلغراف الذى
بعث به جلالة القيصر الى جلالة السلطان يرجوه فيه أن يصدر
أمره بايقاف الحرب مع اليونان
أما الدولة التى أصبحت فى هذه السنين الاخيرة حاملة
لراية العدوان ضد الدولة العلية فهى انكثرا عدوة الاسلام
وعدوة مصر

فلقد قضت هذه الدولة أزمانا طويلة ظهرت فيها
للدولة العلية بمظهر الصديقة الوفية والحليفة الامينة . وكانت

تكسب من هذه الصداقة الكاذبة بقدر ما كانت تخسر
تركيا . فان لانكلترا مصلحة عظمى دائمية في أن الروسيا
تحارب تركيا لتضعف قواها فلا تستطيع مطاردة الانكليز
في الهند والشرق الاقصى ولتضعف تركيا فتستولي انكلترا
على شىء من أملاكها بحجة الدفاع عنها . وفوق ذلك فان
انكلترا كسبت كثيرا من صداقة تركيا لها - بقطع النظر
عن المكاسب المادية والتجارية والصناعية - بما كانت تنيلها
هذه الصداقة من النفوذ عند المسلمين ومن السلطة التامة على
مسلمى الهند . فلقد كاد أهل الهند يطردون الانكليز من
بلادهم في ثورة سيباى الشهيرة لولا صداقة تركيا لهم هذه
الصداقة التى حملت المرحوم السلطان (عبد المجيد) على اصدار
منشور لمسلمى الهند أمرهم فيه بالركون الى السكينة والهدوء
وعدم القيام باحداث الاضطرابات ضد حكومة صديقتهم
« ملكة بريطانيا »

فاذا كان الانكليز في الهند عاشوا طويلا آمنين شر
المسلمين فما الفضل فى ذلك الا للدولة العلية . وهام اليوم

يدعون ان تركيا « عدوتهم الحالية » وصديقتهم القديمة
أوعزت الى الهنود المسلمين بالثورة فثاروا ولا يزالون ثائرين
وسواء كانت ثورتهم بايعاز من تركيا - وهو مالا أظنه لان
الثورة قائمة بها قبائل معلومة ولو كانت الدولة العلية أوعزت
بالثورة لثار مسلمو الهند جميعا - أو بايعاز من ضمايرهم
وتفوسهم . فدعواهم هذه دليل ساطع على أنهم استفادوا
كثيرا من تظاهرهم بالصدقة للدولة العلية وان اشهارهم
العداوة لتركيا لا يضر إلاهم

ولقد أدركت الحكومة العثمانية من يوم أن تولى أمور
الدولة العلية جلالة السلطان الاعظم (عبد الحميد الثاني) ان
انكلترا خداعة في ودها وانها تضر بمن تتظاهر لهم بالصدقة
أكثر مما تضر باعدائها الظاهرين . فقد أخذت من الدولة
العليية قبرص بدعوى مساعدتها ضد روسيا في مؤتمر برلين
ثم دخلت المؤتمر وخرجت منه بدون أن تستفيد تركيا من
هذه المودة الانكليزية الكاذبة أقل فائدة . بل ان الدولة
العليية فقدت في هذا المؤتمر ما لم تفقده قط في مؤتمر آخر

وقد شعرت الروسية كذلك بعد حرب سنة ١٨٧٧ أنها لا تستفيد من حروبها مع تركيا ما يعوض عليها خسائرها العظيمة في هذه الحروب فقضت سياسة مسالمة الدولة على سياسة العداة . فكان هذا التاريخ مبدءاً للشقاق والعداوة بين الدولة العلية وبين انكلترا . وقد ظهرت هذه العداوة بمظهرها التام الواضح بعد احتلال الانكليز لمصر . حيث رأى جلالة السلطان في هذا الاحتلال وفي خطة الانكليز فيه وفي خداعهم لجلالته ما علم منه ان الانكليز لا صديق لهم وانهم أكبر أعداء تركيا وأن صداقتهم القديمة المزعومة لم تكن الا حجاباً ستروا وراءه عداوتهم المرة وأطماعهم الشديدة ضد دولة آل عثمان

ومن ذلك الحين عملت انكلترا على دس الدسائس ضد السلطنة السنية في كل أنحاء الاملاك المحروسة فهاجت الارمن والكريديين والدروز . ولكن دسائسها لم تأت بغير نتيجة واحدة . وهي اضعاف هذه العناصر التي اتخذتها انكلترا آلات لها واظهار قوة الدولة العلية أمام الملاكه .

وقد علمت اليوم كل العناصر على اختلافها وجميع الامم صغيرة كانت أو كبيرة أن عدو اليونان الحقيقي ليس بتركيا التي صبرت على رذائلها طويلا بل انكلترا التي شجعته على الحرب وساعدتها في السر والجهر وملاّت مقدونيا من الاسلحة والدناير الانكليزية مؤملة قيامها في وجه تركيا أثناء الحرب تخافت آمالها وحبطت مساعيها ورجعت مخذولة خذلانا سياسيا دونه خذلان اليونان الحربي

وقد حسب الانكليز أنهم يبلغون متمناهم من مصر ووادى النيل ويضعون بذلك أيديهم على الحجر الاساسى للخلافة الاسلامية والسلطنة العثمانية . ولكن مالا ريب فيه هو أن نصيبهم في مصر الفشل عاجلا أو آجلا . ولا يغرن القراء سيرهم الحالى في بلاد وادى النيل فانما هو نتيجة ضعف رجال مصر الذين سلمت اليهم مقاليد الامور . واستيلاء الانكليز على الادارات المصرية لا يؤثر مطلقا على جوهر المسئلة نفسها . وحيث فشل نابليون الاول يفشل الانكليز ولا محالة

وقد علمت انكلترا أن احتلالها لمصر كان ولا يزال
ويكون مادام قائما سببا للعداوة بينها وبين الدولة العلية وان
المملكة العثمانية لا تقبل مطلقا الاتفاق مع انكلترا على بقاءها
في مصر . اذ أن مسألة مصر بالنسبة لتركيا والخلافة تعد
مسئلة حيوية . ولذلك رأت انكلترا أن بقاء السلطنة العثمانية
يكون عقبة أبدية في طريقها ومنشأ لامشاكل والعقبات في
سبيل امتلاكها مصر . وان خير وسيلة تضمن لها البقاء في
مصر ووضع يدها على وادي النيل هو هدم السلطنة العثمانية
ونقل الخلافة الاسلامية الى أيدي رجل يكون تحت وصاية
الانكليز وبثابة آله في أيديهم . . ولذلك أخرج سياسة بريطانيا
مشروع الخلافة العربية مؤمليين به استماله العرب لهم وقيامهم
بالعصيان في وجه الدولة العلية . ولكن العرب وغير العرب
من المسلمين أرشد من أن يخدعهم الانكليز بعد ما مر من
الامور وما جرى من الحوادث . ولذلك أيضا كنت ترى
الانكليز ينشرون في جرائدهم أيام الحوادث الارمنية مشروع
تقسيم الدولة العلية حماها الله جامعين لا تقسمهم من الاملاك

المحروسة مصر وبلاد العرب أى السلطة العامة على المسلمين
والذى يبغيض الانكليز تلى الخصوص فى جلالة السلطان
الحالى هو ميله الشديد الى جمع كلمة المسلمين حول راية
الخلافة الاسلامية. وهو أمر يحول بينهم وبين أسى أمانتهم
أى ايجاد الشقاق بين المسلمين وبعضهم وخروج بعض المسلمين
على السلطنة العثمانية. ومن ذلك يفهم القارىء سبب اهتمام
الانكليز بالافراد القليلين الذين قاموا من المسلمين ضد
جلالة السلطان الاعظم وسبب مساعدتهم لهم بكل ما فى
وسعهم .

وانكأترا تعلم علم اليقين أنها لو استطاعت أن تجعل خليفة
المسلمين تحت وصايتها أى آلة لها يكون لها سلطة هائلة وتفوذ
لا حد له فى سائر أنحاء المعمورة . فانها تستطيع عندئذ (لا قدر
الله) أن تنفذ رغائبها عند المسلمين التابعين لها وغير التابعين
بواسطة هذا الخليفة . ولذلك فهى بعملها على هدم السلطنة
العثمانية تعمل على تحقيق غرض بعيد هو أكبر أغراضها
وأمنية سياسية دونها كل الامانى

وكما أن مشروع الاستيلاء على السودان بواسطة مصر هو من المشروعات القديمة عند الانكيز - ويثبت ذلك ارسال غوردون وسامويل باكر الى آخر السودان بواسطة حكومة مصر التي أحسنت الظن بالانكيز فان مشروع جعل الخلافة الاسلامية تحت وصاية الانكيز وحمايتهم هو مشروع ابتكره الكثيرون من سواسهم منذ عهد بعيد . وقد كتب كتاب الانكيز في هذا الموضوع ومنهم المستر بلانت المعروف في مصر . فقد كتب كتابا قبل احتلال الانكيز لمصر في هذا المعنى سماه (مستقبل الاسلام) وأبان فيه أغراض حكومة بلاده وأماني الانكيز في مستقبل الاسلام وقد كتب في فاتحة كتابه ما نصه

لا تقنطوا فالدر ينثر عقده

ليعود أحسن في النظام وأجملا

أى ان هدم السلطنة العثمانية لا يضر بالمسلمين بل ان هذا العقد العثماني ينثر ليعود عقدا عريبا أحسن وأجمل - ولكن ما لم يقله المستر بلانت هو ان قومه يريدون هذا

العقد العربي في جيد بريطانيا لافي جيد الاسلام

ويبين المستر بلانت في كتابه هذا قوة العالم الاسلامي وكيف ان المدير لامورده يكون قوياً واسع السلطنة ويبين كذلك مشروع نابليون الاول وكيف انه أراد أن يكون خليفة المسلمين وان يقود قواهم - وهو يريد بذلك الفات أنظار قومه الى مشروعهم القائمون به الآن ويبين المستر بلانت ايضاً « أن مركز الخلافة الاسلامية يجب ان يكون مكة وان الخليفة في المستقبل يجب ان يكون رئيساً دينياً لاملكا دنوبيا » أي ان الامور الدنيوية تترك لانكلترا تدبر أمورها كيف تشاء! ويعقب المستر بلانت ذلك بقوله « ان خليفة كهذا يكون بالطبع محتاجاً لحليف ينصره ويساعده وما ذلك الحليف الا انكلترا! » وبالجملة فحضرة المؤلف لكتاب مستقبل الاسلام يرى - وما هو الا مترجم عن آمال أبناء جنسه - أن الاليق بالاسلام أن ينصب انكلترا دولة له ولم يبق للمستر بلانت الا أن يقول بأن الخليفة يجب أن يكون انكليزياً !!

يتضح بجليا للقارىء مما قدمنا أن ليس للسلطنة العثمانية وبالطبع للخلافة الاسلامية في هذه الايام عدو يجاهر بالعدوان لها ويعمل على دك أركانها وتقويض بنيانها غير انكلترا . ويمكن تعريف المسئلة الشرقية اليوم بأنها مسئلة النزاع القائم بين انكلترا وبين بقية دول أوروبا وبما فيها الدولة العلية . فان معاداة انكلترا للدولة العلية هي في الحقيقة معاداة لكل المسيحيين ولكل المسلمين أى للعالمين الغربى والشرقى . وان واجب أوروبا أمام هذه الحرب السياسية حرب الدسائس والا كاذيب القائمة بها انكلترا ضد الدولة العلية واضح جلى . فمحتم عليها اذا كانت تعمل للمحافظة على السلام العام وعلى أرواح البشر أن تحبط مساعي انكلترا في الشرق وان تقف لها بالمرصاد . ومن العدل ان نقول ان حكومتى فرنسا والروسيا قامتتا في المسئلة الارمنية بإبطال الدسائس الانكليزية واحباط مساعي سواس انكلترا . وأظن أنه لم يغيب عن ذهن انسان ان انكلترا عرضت رسميا على الدول الاوروبية خلع جلاله السلطان الاعظم فرفضت روسيا وفرنسا

طلب انكلترا قبل كل الدول . وقد قامت المانيا في الحرب
الاخيرة بواجب أوروبا كلها ضد انكلترا فتم للدولة العلية
الظفر والنصر وتم لبريطانيا الفشل والخذلان
أما واجب العثمانيين والمسلمين أمام عداوة انكلترا
للدولة العلية فينبى لا ينكره الا انخونة والخوارج والدخلاء .
فواجب العثمانيين ان يجتمعوا جميعا حول راية السلطنة السنية
وان يدافعوا عن ملك بلادهم بكل قواهم ولو تفانى الكثيرون
منهم فى هذا الغرض الشريف حتى يعيشوا أبد الدهر سادة
لا عبيدا . وواجب المسلمين أن يلتفوا أجمعين حول راية الخلافة
الاسلامية المقدسة وأن يعززوها بالاموال والارواح فى
حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم وفى بقاء مجدها ورفعتهم ورفع
العقيدة الاسلامية المقدسة



المسئلة الشرقية

في

القرن الثامن عشر

لقد حدثت في القرن الثامن عشر أزمة شديدة مهمة للمسئلة الشرقية هي الحرب بين الدولة العلية والروسيا التي طالت من أواخر عام ١٧٦٨ الى أوائل عام ١٧٧٥ وهذه الازمة كانت شديدة غزيرة النتائج وأصلا لتداخل أوروبا في أمور الدولة العثمانية باسم الدين

وقد كانت الروسيا حليفة للبروسيا في ذلك العهد مخالفة أمضى عليها فريديريك الكبير ملك بروسيا وكاترينا امبراطورة الروسيا يوم ١١ ابريل سنة ١٧٦٤ وكان أجلها ثمانى سنوات. وسبب تداخل البروسيا في المسائل الشرقية هو تحالفها مع الروسيا نحو قرن . وداعية هذا التحالف هي العداوة الشديدة التي كانت بين النمسا والبروسيا في المانيا وبين النمسا والروسيا في مسائل الشرق . وقد كان يعقد أحيانا اتفاق بين تلك

الدول الثلاث ولكن العداوة بقيت طويلاً بالرغم عن هذه
شديدة بينها وبين بعضها

ومن أسباب تحالف روسيا والبروسيا غير ما ذكرناه
اشتراكهما في المصلحة ضد بولونيا التي كانت جمهورية وقتئذ
وفي حالة من التفاوض عظيمه. وقد كان يروق للروسيا والبروسيا
بقاء نفوذها قويا في بولونيا والعمل على زيادة النفوذ فيها
لتمكنا من تقسيمها والاستيلاء عليها

وكان قد عقد بين فرنسا والنمسا عام ١٧٥٦ تحالف
يضمن للنمسا مساعدة فرنسا الحربية والسياسية في كل أوروبا
ويضمن لفرنسا عدم تداخل النمسا ضدها في حالة قيام
الحرب بينها وبين انكلترا. وقد حصل وقتئذ أن (أوجست
الثالث) ملك جمهورية بولونيا توفي وأرادت روسيا بالاتفاق
مع البروسيا أن تعين بدلا عنه (ستانيسلاس أوجست
بونياتووسكى) الذى كان محبوباً عند كاترينا امبراطورة
روسيا وعاشقا من أكبر عشاقها وكانت ترمى روسيا بهذا
التعيين الى القاء بذور الشقاق والشحناء بين البولونيين

واحداث الاضطرابات في بلادهم بواسطة هذا الملك الجديد
فعمل عندئذ الوطنيون البولونيون لدى الباب العالي
مستغيثين به لاجباط مساعي روسيا في تعيين (ستانيسلاس)
ولكن سفيرا روسيا والبروسيا بالاستانة بدلا ضد هؤلاء
الوطنيين كل جهدهم

وكان من صالح النمسا وفرنسا عدم نجاح روسيا
والبروسيا في مساعها لتعيين (ستانيسلاس) فخرضتا الدولة
العلية ضد روسيا والبروسيا وأظهرتا لها فائدة تداخلها في
صالح البولونيين ولكن المرحوم السلطان (مصطفى الثالث)
كان يعجب بفريدريك ملك البروسيا اعجاباً زائداً فلم يرض
لذلك العمل ضده . سيما وان تعيين (ستانيسلاس) كان
لا يضر بمصالح الدولة مطلقا . فتم تعيين هذا الرجل ملكا
لبولونيا يوم ٧ سبتمبر سنة ١٧٦٤

وما استقر هذا الرجل على كرسى ملك بولونيا حتى
خلق فيها المشاكل والاضطرابات طبقاً لرغائب كاترينا
وسهل لها التداخل في شؤونها الداخلية . فطلب عندئذ بتاريخ

٢٥ نوفمبر من السنة نفسها سفيرا روسيا والبروسيا من حكومة بولونيا جملة طلبات تخالف المصلحة البولونية فرفضها مجلس نواب بولونيا وكان رفضه هذا سببا لتداخل روسيا فدخلت بولونيا بجيوشها الجرارة وأسالت الدماء وأتحت على الكثيرين من الأبرياء واستمرت الثورات في بولونيا تباعا والعالم كله ناظر اليها بلا حراك حتى بلغت روسيا صرامها من هذه الديار التعسة وصارت بولونيا مستقلة في الظاهر محكومة في الباطن بأهواء روسيا وأغراضها

وفي هذه الاثناء تعين المسيو (شوازيل) وزيرا لخارجية فرنسا وكان أند أعداء روسيا . وعلى الخصوص كان عدوا شخصياً لكاترينا فكتب الى المسيو « دى فرجين » سفير فرنسا من الاستانة يأمره بعمل كل ما في سعته لخلق المشكلات بين الدولة العلية وروسيا وأرسل اليه ثلاثة ملايين من الفرنكات ليشتري بها ذمم بعض رجال الدولة وكان الوطنيون البولونيون حين ذلك يستغيثون بالدولة ليلا ونهاراً

وحصل ان بعض قسوس روسيا جاءوا بلاد الدولة
وأخذوا يهيجون أهالى اليونان وكريد والجبل الاسود باسم
الدين حاملين بأيديهم وعلى صدورهم الصليب . وقام وقتئذ
قسيس اسمه « ستيفانويكولو » فى شهر اكتوبر عام ١٧٦٧
يدعو أهالى الجبل الاسود للقيام ضد المسلمين فهاجت الاهالى
هياجاً شديداً

فلما رأت الدولة ذلك ووقفت على النطائع العديدة التى
جرت فى بولونيا أنذرت الدولة الروسية بالخروج من بولونيا
فرفضت وكان ذلك سبب الحرب

وقد كانت الامة العثمانية ميالة الى البولونيين
حتى ان المسيو « زيجلين » سفير بروسيا بالاستانة كتب الى
حكومته بتاريخ ٢٦ يوليو سنة ١٧٦٨ يقول « انه وان كانت
الحكومة العثمانية مطلقة النفوذ والسلطة فى بلادها ولكن
للرأى العام صوتا اذا ارتفع لا تقدر الحكومة على مخالفته »

وعند ما علمت روسيا باستعداد الدولة العلية للحرب
أرسلت عساكرها واحتلت « كاركوفيا » . وقد أعلنت

الحرب يوم ٦ أكتوبر سنة ١٧٦٨ وكان ذلك بالقاء الدولة العلية سفير الروسي في القصر المعروف (بقصر السبعة أبراج) وبهذه الصورة كانت تعلن الحرب في القرن الماضي وقد أرسلت الدولة عندئذ منشوراً للدول الأوروبية بتاريخ ٣٠ أكتوبر سنة ١٧٦٨ أبانت فيه أسباب إعلانها الحرب للدولة الروسية قائلة « لقد تجاسرت روسيا وقضت على حرية بولونيا وأجبرتها على قبول ملك ليس من عائلة ملوكية ولم تنتخبه الأمة ملكاً عليها طبقاً لقوانينها وشرائعها . وأسالت روسيا الدماء وذبحت كل من خالف سياستها وأغراضها وخربت الأراضى والأمالك »

وقد أدهش إعلان الحرب بهذه الصورة كل رجال السياسة الأوروبية وجعل كل همهم الانتفاع منها . أما المسيو (دى فرجين) سفير فرنسا فقد أعاد إلى حكومته الثلاثة ملايين وكتب إليها « ان رجال تركيا لا تشتري ذممهم لانهم يعملون بمقتضى مصلحة بلادهم وشرف دولتهم » ومضت أشهر طويلة اشتغل فيها كل خصم بالتجهيز

والتحضير ولم تقيم الحرب الحقيقية الا في شهر يوليو عام ١٧٦٩ على شواطئ نهر (الدينستر) وقد اقتتل الجيشان طويلا حول (خوتين) واختلف المؤرخون في اثبات وجود فرق بروسية بين الجيش الروسي فقال بعضهم بوجودها بمقتضى المعاهدة التي بين روسيا والبروسيا وأنكر البعض الآخر وجودها. ولكن الرأي الاول أقرب الى العقل والحقيقة

وفي يوم ١٦ سبتمبر هجم الجيش العثماني على الجيش الروسي ووقعت بينهما معركة هائلة انتهت بانتصار الروسيين واستيلائهم على مقاطعة (البغدان). وأخذوا بعد هذه الواقعة قلاع خوتين وأزوف وتاجا نروج. ثم احتلت العساكر الروسية يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٧٩٦ مدينة (بوخارست) التي هي عاصمة رومانيا الحالية. أما مقاطعة البغدان فهي تكوّن مع مقاطعة الافلاق مملكة رومانيا نفسها

وقد اغترت روسيا بهذا الانتصار وأرادت فصل اليونان من أملاك تركيا — وكانت أرسلت من قبل بطلا اسمه (أورلوف) ليهيج اليونانيين ضد الدولة العلية — فأرسلت

في البحر الابيض المتوسط في آخر سنة ١٧٧٠ أسطولين
الاول تحت (قيادة سيروتوف) الروسي والثاني تحت قيادة
(ألتستون) الانكازى وقد تجمعت عند جماعات اليونان
وتظاهرت بالقيام في وجه الدولة ولكنها تفرقت شذر مذر
عند تقدم الاتراك والالبانيين . فرجعت روسيا بخفي حنين
ويئست من تخليص اليونان في ذلك الحين

ثم أرادت روسيا أن تنتقم من الدولة العلية لفشل
مساعدتها في اليونان فعما كست مراكبها وأسطولها ولم تأخذ
بعد حرب وقاتل عنيفين الا بعض السفن العثمانية في
« تشمسه »

*
* *

ولقد كانت سياسة كل دولة من الدول الاوروبية في
هذه الحرب مختلفة عن الاخرى . فكانت فرنسا مصادقة
للدولة العلية ومعادية لروسيا وكانت الدولة الوحيدة المنتصرة
لبولونيا . ولكن صداقتها للدولة العلية وانتصارها لبولونيا لم
ينتجا أقل نتيجة لان الدول الثلاث الروسية والبروسية والنمسا

اتفقت في آخر الامر كما سيراد القارىء على تجزئة بولونيا
فكان من المستحيل على فرنسا مساعدة تركيا مساعدة فعلية
خوفا من اشتعال نار الحرب بينها وبين الدول الاوروبية .
ولكن ما كانت تخافه لنفسها تشجع الدول العلية على الاتيان
به فهي كانت تخشى الحرب ولكنها كانت اول محرصة للدولة
العلية عليها . وهكذا الدول كلها والامم جميعها متى رأت في
عمل من الأعمال احتمال الخير والشر تفضل أن يقوم به غيرها
فان أتبع خيرا استفادت منه وان أتبع شرا اجتنت أضراره
وكان « شوازيل » وزير فرنسا الاكبر ذا سياسة خرقاء
حيث كانت النمسا ساخرة من تحالفها مع فرنسا لا تقبل منها
نصيحة ولا تتبع لها رأيا . وكانت سياسة « شوازيل » ترمى
الى اضعاف روسيا وتركيا في آن واحد كما يتضح ذلك جلليا
من مذكرة رسمية أرسلها في شهر ديسمبر عام ١٧٦٩ الى
البرنس (كونيتز) وزير النمسا وجاء فيها (وترى فرنسا أن
أحسن شيء يعود على تحالفنا (أي تحالف فرنسا والنمسا)
بالفائدة هو ان تستمر الحرب بين روسيا وتركيا مع

انتصارات متبادلة من الجانبين حتى يضعف انحصان بدرجة واحدة . واذا ساعدتنا الايام تكون لنا الفرص كلها والفوائد أجمعها)

أما النمسا فكانت قد عقدت مع روسيا في عام ١٧٥٣ معاهدة ضد الدولة العلية ولكنها بطلت عام ١٧٦٢ بسبب تحالف روسيا مع البروسيا ولما أعلنت الحرب بين الدولة العلية والروسيا عام ١٧٦٨ اتبعت النمسا في بادئ الامر سياسة الحياد مع مسالمة الدولة العلية

وفي ختام عام ١٧٦٩ كتفت النمسا سفيرها في الدولة العلية المسيو (توجوت) أن يعرض على وزراء جلاله السلطان رغبة النمسا للتدخل في عقد الصلح بين المتحاربين . ولم تكن رغبة النمسا الحقيقية من هذا التدخل عقد الصلح بل كان غرضها الوصول الى امتلاك مقاطعة من أملاك تركيا وتوسيع نطاق المملكة النمساوية

وسيجد القارىء في خلال هذا الفصل الخطة التي جرت عليها النمسا مع الدولة العلية وكيف انها حالفها ضد روسيا

وعملت في الوقت نفسه على الاتفاق مع الروسيا ضد تركيا !!
وأما البروسيا فقد كان ملكها وقتئذ « فريدريك الكبير »
المشهور بدهائه السياسي وقدرته الفائقة على الاستفادة من
كل حادث أوروبي . وقد جعل سياسته في المسئلة الشرقية
الاستفادة من الحرب بين الدولة العلية والروسيا مع المحافظة
على استقلال الدولة العلية . وكتب في مذكراته السياسية
الشهيرة « انه يوحد لنا طريقتان أمام تقدم الروسيا واتساع
أملكها . الاولى ايقافها في تقدمها وفتوحاتها . والثانية
- وهي أحكم طريقة - الاستفادة من تقدمها واتساع أملكها
وفتوحاتها بمهارة » وقد اتبع فريدريك الكبير الطريقة الثانية
كما كتب في مذكراته فكان متخالفا مع الروسيا وعلى تمام
الصفاء مع تركيا وبذلك كان يستفيد أكثر من غيره

ولما قامت الحرب بين الدولة العلية والروسيا كان
اشتغال فريدريك الكبير منحصر في الوقوف على الخطة
التي ستجرى عليها النمسا . هل تبقى وفيه لفرنسا حليفها أي
مصافية لتركيا وبولونيا أو تنخدع للروسيا فيفقد التحالف

الروسي البروسي أهميته الأولى . وقد وجد عندئذ فريدريك
بدهائه الغريب وذكائه العالى طريقة مثلى لفصل النمسا من
فرنسا ولمنعها من معاداة روسيا فى الشرق وفى بولونيا ولبقاء
التحالف الروسى البروسى بأهميته الأولى . فوضع لذلك
مشروع تحالف ثلاثى بين روسيا وبروسيا والنمسا يكون
غرضه حل المسئلة الشرقية لاثى تركيا تقسما بل فى بولونيا
بأن تقسم هذه المملكة بين هاته الدول الثلاث

وهذه الامنية كانت أكبر أمانى فريدريك الكبير
أيام حكمه لانه كان يرى فى تقسيم بولونيا ربحا كبيرا للبروسيا
واتساعا لنطاقها بضم بولونيا البروسية لها

وأول مرة فاتح المسيو (سولمس) سفير بروسيا فى
سان بطرسبورغ المسيو (بابدين) وزير روسيا الاكبر فى
مسئلة تقسيم بولونيا كان جواب الوزير الروسى ان تحالف
الدول الثلاث يجب أن يرمى أيضا الى تقسيم الدولة العلية .
فلما سمع فريدريك هذا الجواب تخوف منه وأهمل أمر
التحالف الثلاثى فى الظاهر

وقد قلنا ان فريدريك الكبير كان يرى في بقاء الدولة العلية فائدة عظيمة لبروسيا وكان يستطلع بحدة ذهنه وقوة بصيرته من خلال الايام الآتية ان مودة الروسيا للبروسيا لا تدوم أبد الدهر وان بقاء الدولة العلية قوية يكون كحاجز حصين امام الروسيا وكصخرة عالية واقفة امامها وبالجملة تكون للبروسيا قوة عظيمة يمكن الاعتماد عليها حسب مقتضى الحوادث

وقد برهنت الايام على ان فريدريك الكبير — وهو أول عامل على توسيع نطاق بروسيا وأول واضع لمشروع الوحدة الالمانية الذي تم على يدي غليوم الاول وبسارك — نظر نظرة بصير فجاء من سلالة جلالة الامبراطور غليوم الثاني مدركاً أهمية التودد للدولة العلية وتوثيق الروابط بينه وبينها فاستفاد العالم من هذه المودة المزدوجة واستفادت المانيا منها كثيراً

ولما علم فريدريك الكبير بجواب وزير الروسيا تخوف منه كما قدمنا ولكنه لم يرجع عن عزمه الاول وهو

العمل على تقسيم بولونيا . فرأى لنوال هذه البغية أن يتجنب الى النمسا ويتحد معها اتحاداً سرياً يوقع الروسيا في الارتباك واللبال فتضطر الى قبول آرائه وتدرك فائدة التحالف معه والعمل بنصائحه . وبالفعل تقابل في مدينة (نيس) مع (جوزيف الثاني) امبراطور النمسا وابن (ماري تيريزيا) الشهيرة وتوصل الى عقد اتفاقية ودية معه في شهر أغسطس عام ١٧٦٩

فكانت نتيجة هذه الاتفاقية ان الروسيا صارت في لبال زائد كما أراد فريديريك . فانها كانت تجهل مضمونها وكانت تظن انها اتفاقية عقدت للعمل ضدها في المسئلة الشرقية فاضطرت الى تجديد محالفتها مع البروسيا يوم ١٢ اكتوبر سنة ١٧٦٩ واشترط جعل أجلها ممتدا الى غاية عام ١٧٨٠ فنالت بذلك البروسيا ما كانت تتمناه وهو ان الروسيا عرفت مقدار تحالفها معها وصار لآرائها عندها تقدير القبول والرضى وباتفاقها مع النمسا اتفاقية ودية صارت حليفة الروسيا وصديقة النمسا ووضعت بذلك الاساس لمشروعها

العظيم . أى مشروع تقسيم بولونيا بين الدول الثلاث
وقد بعث فريدريك الكبير بأخيه البرنس هنرى الى
سان بطرسبورغ لزيارة القيصر فوصل عاصمة روسيا يوم
١٢ أكتوبر سنة ١٧٧٠ وقد تحدث كثيراً مدة وجوده فى
بطرسبورغ مع القيصرة ورجال السياسة الروسية فى مشروع
عقد تحالف ثلاثى بين روسيا والبروسيا والنمسا بقصد تقسيم
بولونيا . فوجد لهذا المشروع قبولا عند الروسيين لم يكن
عندهم من قبل

وقد بذت البروسيا فى ذلك الحين جهدها فى اقناع
الدولة العلية بضرورة ايقاف الحرب والتوسط فى الصلح حتى
رضيت الدولة العلية وطلبت بمذكرة تاريخها ١٢ أغسطس
سنة ١٧٧٠ من بروسيا والنمسا التوسط بينها وبين روسيا
فى أمر عقد الصلح

يرى القاريء مما تقدم سياسة كل من دول فرنسا
والنمسا والبروسيا فى المسئلة الشرقية فى القرن الثامن عشر
أما انكثرا فقد جرت فى هذا القرن الماضى على سياسة

مزدوجة . فكانت تساعد روسيا في الحرب كل المساعدة وتظهر للدولة العلية بمظهر الصديقة لتقف على أسرارها حيث تطلع روسيا عليها . ولما قامت الحرب بين الدولتين العلية والروسية كانت انكلترا مشغلة بأمور الهند التي كانت استوات عليها منذ بضع سنين من قبل

ولما كانت روسيا مصافية لانكلترا وغير ميالة وقتئذ للاستيلاء على الهند وسلبها من أيدي الانكليز وكانت فرنسا هي العدو اللدود لانكلترا والدولة الوحيدة التي كانت تخاف منها انكلترا على الهند - وقد كانت الهند من قبل ملكا لفرنسا ومستعمرة من مستعمراتها - اتبع الانكليز سياسة التقرب من روسيا والتودد اليها ومعازاة فرنسا والدولة العلية وفضلا عن الاسباب السياسية الداعية لذلك فهناك أسباب تجارية دفعت الانكليز لمحاباة روسيا فقد كانت انكلترا تتاجر وحدها في الشمال وكانت واردات روسيا كلها من انكلترا . وكان الكثيرون من البحارة الانكليز موظفين في المراكب الروسية . وقد أراد (شوازيل) وزير

فرنسا الاكبر أن يضرب المراكب الروسية بالعمارة الفرنسية
وقدم بذلك مذكرة لمجلس نظار فرنسا ولكنها رفضت وقبل
رفضها أعلنت وزارة لندره ان كل عمل يعمل ضد روسيا
يعد اهانة لانكلترا واعتداء عليها . وهو قول يبين مقدار
ميل الانكلترا للدولة الروسية في ذلك الحين أو بعبارة أوضح يبين
مقدار المكاسب العظيمة التي كانت تكسبها انكلترا من روسيا
ومن اكبر الاسباب التي جعلت انكلترا ضعيفة الصوت
في مسائل الشرق في ذلك الحين هو اضطراباتها الداخلية
وقيام الامريكيين بالثورة ضدها مطالبين بالاستقلال الذي
نالوه بدماء أبطالهم أي بأعز الاتمان

ومن غريب أمر السياسة الانكليزية انها مع محاباتها
للروسية كل المحاباة أرادت أن تظهر لتركيا بمظهر الصداقة
كما قدمنا فعرضت عليها في صيف عام ١٧٧٠ أن تتدخل
بينها وبين روسيا لعقد الصلح فأجابت الدولة العلية سفير
انكلترا بالاستئان (السير موري) بمذكرة حكيمة جاء فيها
« انه لمن الامور المدهشة الخارقة للعادة ان انكلترا تعرض

على الباب العالى توسطها فى الحرب مع ان لها سفنا فى
الاسطول الروسى حاربت ضدنا . ولذلك نحن نعتقد ان طلبها
التوسط فى الحرب ليس الا ستارا لاغراض اخرى ينويها
العدو (أى الروسيا) . فلتعلن انكثرا خطتها وسلوكها
بدون مراوغة حتى يعلم الباب العالى مع أى المتحاربين هى
أمره أو ضده ؟ . وقد أحدثت هذه المذكرة الحازمة تأثيراً
شديداً لدى الانكيز وأفهمتهم أن الاتراك خيرون بسياستهم
وبما فيها من العش والنفاق فاضطروا لسحب ضباطهم
وعساكرهم من الاساطيل والجيوش الروسية ولكن ذلك
جاء بعد ان قضت الحرب معظمها

ولما طلبت الدولة العلية من بروسيا والنمسا التوسط
فى أمر الصلح أبلغت انكثرا الروسيا هذا الطلب لتأخذ
حذرهما فكانت وظيفة انكثرا فى هذه المسئلة اشبه بوظيفة
جاسوس على الدولة العلية لاروسية

*
* *

ولما علمت الروسيا بواسطة الانكيز بأمر طلب الصلح

أرادت أن تعرقل مساعي البروسيا والنمسا فأمرت الجنرال روماتسوف بتاريخ ٢٦ سبتمبر سنة ١٧٧٠ أن يكتب الى الصدر الاعظم بأن الروسية مستعدة للمناقشة مع الباب العالي مباشرة في أمر الصلح متى أطلق سراح (أوبرسكوف) سفير الروسية في الاستانة . وبذلك منعت الروسية البروسيا والنمسا من التداخل في أمر الصلح مدعية بأن تداخل هاتين الدولتين يدعو لتداخل فرنسا . وهو الامر الذي ترفضه القيصرية رفضا باتا

وفي هذه الاثناء استولى الجيش الروسى على مدينة بندر واكرامان وبرايلا . ولما طال أمر المراسلات بشأن الصلح بين فريدريك وكاترينا كتبت قيصرية الروس الى ملك بروسيا بتاريخ ٢٠ سبتمبر من السنة نفسها توضح له الشروط التي تشترطها لعقد الصلح . وهي الاستيلاء على أزوف وكاباردا مع استقلال البغدان والافلاق أو بقاء هاتين المقاطعتين تحت حكم الروسية لمدة ربع قرن كغرامة حرية . واستقلال ترنار البسرابى والقرم وحرية الملاحة في البحر الاسود والتنازل

عن جزيرة للروسيا في الارخبيل وعفو عام عن كل اليونانيين
الذين تاروا ضد الدولة العلية أثناء الحرب

فلما أطلع فريدريك على هذه الشروط اندهش غاية
الاندهاش من مطالب روسيا وأطاعها . وقد حصل وقتئذ
أن رئيس أفندي (وهي وظيفة كانت في الدولة العلية بمثابة
وظيفة ناظر الخارجية) أخبر سفيرى النمسا وبروسيا أن الدولة
العلية لا تقبل المخابرة مع الروسية مباشرة بشأن الصلح
ولكنها تقبل توسط النمسا والبروسيا وأبلغهما أنه أعلن
ذلك للجنرال روما تتسوف

وقد كتب فريدريك لما اطلع على شروط الصلح
المبعوثة اليه من القيصرة الى أخيه البرنس هنرى — الذى
كان لا يزال بسان بطرسبورغ — بتاريخ ٣ يناير سنة ١٧٧١
« لقد اندهشت اندهاشا عظيما لما اطلعت على الشروط التى
تقدمها الروسية للصلح وانه يستحيل على أن أقدمها للاتراك
أو للنمساويين لانها شروط لا يمكن قبولها » وأبان فريدريك
في كتابه لآخيه أن هذه الشروط لا يمكن لدول أوروبا قبولها

وانها تعتبر اعلان حرب للنمسا . وقد كتب بنفسه للقيصرة بتاريخ ٥ يناير سنة ١٧٧١ انها اذا كانت تريد اجتناب الحرب مع النمسا يجب عليها أن تكتفي بأخذ أزوف والكاباردا وبحرية الملاحة في البحر الاسود

وفي أثناء ذلك كانت القيصرة كاترينا تتحدث مع البرنس هنرى بسان بطرسبورغ في أمر تقسيم بولونيا . فلما كتب البرنس هنرى الى أخيه بذلك سر ملك بروسيا حيث جاء هذا الأمر موافقا لرغائبه . واجتهد في جعل حل المسئلة الشرقية في بولونيا فقط لعلمه بما لبقاء الدولة العلية من اللزوم والاهمية . فأراد تقسيم بولونيا على شرط ان الروسية لا تأخذ البغدان والافلاق

وقد جرى عندئذ ان النمسا طمحت لمخالفة تركيا ضد الروسية والعمل للاستفادة من هذه المخالفة ولو ضد تركيا نفسها . فبعث (كونيترز) رئيس الوزارة النمساوية الى المسيو « توجوت » سفير النمسا في الاستانة يأمره بمخاطبة رجال الدولة العلية في أمر عقد مخالفة بين النمسا وتركيا يشترط

فيها ان تركيا تدفع سنويا للنمسا ٣٤ مليوناً من الفلورينو أي فوق الثلاثة ملايين من الجنيهات . وان تنازل لها عن (الافلاق) ومدينة بلغراد وان تجعل للنمساويين في ممالك الدولة العلية أهم الامتيازات التجارية . وفضلا عن كل هذه الشروط تقدم للنمسا في حالة الحرب من خمسين الى ستين ألف مقاتل . وتشترط النمسا على نفسها مقابل ذلك أن تحارب الروسيةا مع تركيا اذا لم ترض القيصرة بطريق المخبرات اعادة البلاد التي استولت عليها الى الدولة العلية

وقد سعى (كونيتر) عندئذ لدى فريدريك ملك بروسيا أن يبقى على الحياد اذا قامت الحرب بين النمسا والروسيا ولكن فريدريك اتبع طريق المراوغة فلم يجب بجواب صريح

أما فرنسا حليفة النمسا فكانت تعمل في هذا الحين على مساعدة تركيا بأسطولها مقابل عوض مالي . ولكن (توجوت) سفير النمسا (الذي كان يكاتب سرا الحكومة الفرنسية) كجاسوس لها مقابل أجره شهريه وكان في

الحقيقة يغشها ولا يخدم الامصاحه النمسا وطنه) بذل أقصى جهده من حين علم بهذا المشروع على احباط مسعى فرنسا فأباز لرجال الدولة العلية ان مساعدة الاسطول لا تفيد شيئاً ما لان الحرب برية محضة لا بحرية . وان قصد فرنسا ليس مساعدة الدولة العلية بل معاداة روسيا ومد أمد الحرب الى ماشاء الله . فأفلح (توجوت) واقتنع رجال الدولة بصدق أقواله وصحة أفكاره ورفضوا مشروع فرنسا

وقد كان رجال الدولة العلية يؤملون ان اتفاق فرنسا مع الدولة يحمل النمسا (حليفة فرنسا) على مساعدة تركيا . ولكن النمسا كانت تخشى هذا الامر لما فيه من التقيد لها ولعلمها بانها لا تستطيع أن تخدع تركيا اذا كانت فرنسا متحدة معها بخلاف ما اذا كانت هي المتحدة مع الدولة العلية دون غيرها . ولذلك كان فشل مشروع فرنسا مضراً بالدولة العلية مفيداً للنمسا حليفة فرنسا !!!

ولما فشل مسعى فرنسا عمل (توجوت) على عقد التحالف بين النمسا وتركيا . ومن حسن حظ النمسا وقتئذ

ان خضعت تاتار بلاد القرم للروسيا وصارت كتاتار البسرابي
فاضطرت الدولة بهذا السبب لتعجيل الاتفاق مع النمسا و قبول
معاهدة التحالف . فأمضت المعاهدة مساء يوم ٦ يوليو
سنة ١٧٧١ . وشروط هذه المعاهدة ان النمسا تتعهد بمساعدة
تركيا ضد روسيا وعدم سلخ أى جزء من الاملاك العثمانية
والمحافظة على استقلال بولونيا مراعاة لشرف الدولة العلية .
وان تتعهد تركيا بدفع مبلغ ١١٣٥٠٠٠٠٠ فلورينو للنمسا
(لا ٣٤ مليوناً كما طلبت النمسا أولاً) أى نحو المليون جنبها
وبالتنازل للنمسا عن أراضى (الافلاق) . وبمساعدة الرعايا
النمساويين فى بلاد الدولة العلية على ترويج تجارتهم وصنائعهم
واشترط بين الدولتين المتعاهدتين ان هذه المعاهدة يكتم
أمرها خصوصاً على فرنسا حليفة النمسا اذ ذاك

وقد رفع (توجوت) صورة هذه المعاهدة الى حكومة
دولته وطلب التوقيع عليها

فلما وصلت صورة المعاهدة الى (كونيتر) اطمان من
جهة الدولة العلية وأخذ يهدد روسيا مؤملاً بهذا التهديد

حملها على مخابرتة في شأن تقسيم الدولة العلية . وقد كان ذلك وأرسلت الروسية الكونت (ماسين) حاملا لجملة مشروعات تختص بالدولة العثمانية ومكلفا من قبل القيصرة بعرضها على (كونيترز) . ومن ضمن المشروعات مشروعان يشتملان على عقد اتحاد بين النمسا والروسيا يكون غرضه الوحيد اخراج الاتراك من أوروبا وتقسيم الدولة العلية . فالمشروع الاول يبين صورة تقسيمها بين الدولتين بأن تأخذ النمسا صربيا والبوسنة والهرسك والباينا ومقدونيه ويترك للروسية بقية أملاك الدولة العلية بما فيها الاستانة . وفي المشروع الثاني تأخذ النمسا الافلاق وصربيا وبلغاريا والهرسك وتأخذ الروسية مقدونيه والباينا ورومانيا وقسما عظيما من الارخبيل وآسيا الصغرى والاستانة . وتأخذ كذلك الروسية الاراضى الواقعة على شمال الدانوب وشواطىء البحر الاسود . أما بلاد القرم والموره فتبقى مستقلة

والمشروع الثالث يتضمن بقاء الترك على الشاطىء

الشمالى للدانوب واعطاء صربيا والبوسنة والهرسك للنمسا

وما على شواطئ البحر الأسود للروسيا مع استقلال التاتار
وقدم الكونت (ماسين) غير ذلك مشروعات أخرى تتعلق
بتقسيم بولونيا بين روسيا والنمسا والبروسيا

وقد اطلعت النمسا على هذه المشروعات كلها وتباحثت
فيها واحداً بعد آخر في وقت كانت تعد فيه متحالفة مع تركيا
تحالفاً يقتضى رد روسيا عن أملاك الدولة العلية وبقاء تركيا
سليمة كما كانت قبل الحرب والمحافظة على احتلال بولونيا..

وبينما كانت النمسا تتباحث في هذه المشروعات الغربية
كان فريديريك الكبير ملك بروسيا يسعى لتقسيم بولونيا مع
بقاء مقاطعات الدانوب تحت سلطة الدولة العلية . أى لحل
المسئلة الشرقية في بولونيا كما قدمنا

أما الدولة العلية فقد قامت بما تعهدت به نحو النمسا
وأرسلت الى حكومة فيينا بتاريخ ٢٥ يوليو سنة ١٧٧١ جانباً
من مبلغ المليون جنيه الذى فرضته على نفسها . وقد طلبت
الدولة العلية جملة مرات التوقيع على معاهدة التحالف غير
أن النمسا كانت تهمل طلب الدولة رغبة منها فى الوصول

الى نوال ما ربهها وأغراضها بدون حرب وقتال . وقد كانت سياسة (كونيترز) ترمى الى عقد اتفاق يفيد النمسا فائدة عظيمة امام مع روسيا ضد تركيا أو مع تركيا ضد روسيا . فلذلك كان يؤجل كل مرة أمر التوقيع على معاهدة التحالف مع تركيا أملا منه في الوصول الى عقد اتفاق مع روسيا يكون أكبر فائدة وأعظم نفعاً . وكان يخشى (كونيترز) انه اذا أمضى على معاهدة الاتحاد مع تركيا تقسم روسيا والبروسيا بلاد بولونيا بين دولتيهما بدون أن تأخذ النمسا شيئاً منها

ولما رأى كونيترز أن الدولة العلية تلح كثيرا في أمر التوقيع على عهدة التحالف كتب الى الحكومة العثمانية بتاريخ ٤ اكتوبر سنة ١٧٧١ كتاب صدق واخلاص قال لها فيه « ان دولته محافظة على عهودها ووفية في تحالفها » ولكنه لم يرسل مع ذلك بالعهد موقعا عليها

وفي هذا الاثناء علم سفير انكلترا بالاستتانة اللورد (موري) بأمر المبلغ الذي أرسلته الدولة العلية للنمسا فأخبر

سفير دولته في باريس وهذا أخبر سفير البروسيا بها -
فلما علم فريدريك الكبير بهذا الخبر بعث به في الحال الى
القيصر وكتب الى سفيره بالاستئذان يأمره بأن يرشد
وزراء الدولة العلية الى حقيقة أغراض النمساويين وبين
لهم انها تعمل للاضرار بمصالح حكومة جلالة السلطان -
وكتب كذلك فريدريك الى سفيره بباريس يأمره أن
يعرض على الوزارة الفرنسية أن تطلب عقد مؤتمر بالاستئذان
لعقد الصلح بين روسيا وتركيا كل ذلك قصد به فريدريك
الكبير أن يظهر النمسا لدول أوروبا بمظهر الدولة الخداعة
في ودها الخائنة لمهودها مع تركيا وفرنسا في آن واحد
وقد كانت الحرب مع تركيا أضعفت الجيوش الروسية
كثيرا وقتالها في بولونيا جعلها في أشد حاجة للراحة والسكينة
فضلا عن أن المال كان ينقص وقتئذ الدولة الروسية -
فكتبت (كاترينا) امبراطورة روسيا بتاريخ ٦ ديسمبر
سنة ١٧٧١ الى فريدريك الكبير ملك بروسيا تخبره أنها
تنازلت عن مطالبها بشأن « البغدان والافلاق » ولكنها

تطلب من تركيا التنازل لها عن بعض مدائن منها « بندر »
و « أوتشاكوف » وتعلمه بأنها قبلت تقسيم بولونيا واعطاء
البروسيا ماطلبته منها أي بولونيا البروسية و (فارميا) وتطلب
القيصرة مقابل ذلك من ملك بروسيا أن يسير عشرين الف
جندي على مقاطعتي (الافلاق والبغدان) اذا قامت النمسا
بمحااربة روسيا

وعند وصول هذا الكتاب الى فريدريك الكبير ملك
البروسيا كان همه موجها الى تقسيم بولونيا وتوسيع دائرة
أملاك بلاده ففرح غاية الفرح بكتاب القيصرة . وانتهى
الامر باتفاق روسيا والبروسيا علي تقسيم بلاد بولونيا
التعسة . وصارت النمسا بهذا الاتفاق بين أمرين اما الوفاء
بالعهد لتركيا وفرنسا ومعارضة مشروع تقسيم بولونيا واما
الاتفاق مع روسيا والبروسيا وعدم احترام عهودها نحو
تركيا وفرنسا . فاختر كونيتز الامر الثاني عاملا بالمبدأ
السياسي القائل « بأن لاعهد ولا شرف في السياسة » .
ووافق الامبراطور جوزيف والامبراطورة ماري تيريزيا

والدته على خطة كونيترز . وكان ذلك في أوائل عام ١٧٧٢
وفي يوم ٢٨ يناير سنة ١٧٧٢ كتب (كونيترز) الى
حكومة روسيا يبلغها قبول النمسا لمشروع تقسيم بولوتيا
ولمطالب القيصرة نحو الدولة العلية . مظهراً أمله وأمل
حكومته في أن النمسا تأخذ من أملاك الدولة العلية شيئاً
كما أخذت من بلاد بولونيا أي أن تقسم الدولة العثمانية
كما قسمت بولونيا !!

وبذلك يرى القارىء أن النمسا بعد ان تحالفت مع
تركيا على ان ترد روسيا عن أملاكها بواسطة المخابرات
السياسية أو بواسطة الحرب وان تدافع عن استقلال بولونيا .
وبعد ان قدمت اليها الدولة العلية ماطلبت من المال .
عرضت بنفسها على روسيا والبروسيا في يناير عام ١٧٧٢
تقسيم بولونيا وتجزئة الدولة العلية !!

وهي نتيجة اعترفت (ماري تيريزيا) نفسها بانها
لا تحرف الملكة النمساوية . وقالت عنها في رسائلها السياسية
« انها سياسة جرت عليها النمسا ضد الشرف وضد مجد

المملكة وضد الذمة والعقيدة .

وقد تم اتفاق روسيا والبروسيا والنمسا على تقسيم بولونيا وانتهى الامر بتقسيم هذه المملكة بفضل دسائس الدخلاء وانقسام أهلها على بعضهم . وذهبت هذه الأمة البولونية الشريفة المشهورة بالوطنية الفائقة والشهامة العظيمة ضحية مطامع الدول الثلاث وفريسة الدسائس الاجنبية والشقاق الاهلي

وقد امتنعت الدولة العلية عن ارسال المدد المالى للنمسا لما رأت تلاعبها معها وتلوتها في سياستها . فجعل (كونيتر) عدم ارسال المدد المالى سببا لحل التحالف بين دولته وتركيا ! ولما علمت الدولة العلية بأن روسيا قابلة لعقد الصلح بدون استيلائها على مقاطعتي (البغدان والافلاق) رضيت بالصلح وعقدت مع حكومة روسيا هدنة بتاريخ ١٠ يونيو سنة ١٧٧٢ . واتفق رجال الدولتين على اجتماع مندوبين من قبليهما بمدينة « فوكتشاني » للمناقشة في شروط الصلح . فاجتمع المندوبون ولبثوا مجتمعين عشرين يوما اتفقوا فيها على

سائر الشروط الا على شرط استقلال الترتار . فقد طلب مندوبو تركيا بقاء الترتار تحت سلطة الدولة العلية لان جلالة السلطان بصفته خليفة المسلمين لا يمكنه التنازل عن السلطة عليهم . فرفض الروسيون هذا الطلب وبذلك انحل المؤتمر . وبعد انحلاله بزمن عرضت روسيا على الدولة العلية عقد مؤتمر آخر فقبلت الدولة وعقد المؤتمر بمدينة (بوخارست) بعد ان عقدت هدنة ثانية جعل آخر أجلها ٢١ مارس سنة ١٧٧٣ . وقد اتفق مندوبو روسيا وتركيا في هذا المؤتمر على مسألة الترتار فرضيت روسيا ببقائهم تحت سلطة جلالة السلطان . ولكنها طالبت من تركيا التنازل لها عن (كرتش) و (ويني قلعة) . فلم تقبل تركيا ذلك وانحل هذا المؤتمر أيضا - كما انحل المؤتمر الاول بغير نتيجة - في أوائل يناير سنة ١٧٧٣

وقد عادت المخابرات مرة أخرى بين الدولتين بتاريخ ١٥ فبراير سنة ١٧٧٣ ولكن الاتفاق كان مستحيلا لان روسيا كانت تطالب بعزم ثابت بكرتش ويني قلعه وساسة

الدولة العلية كانوا يرفضون طلب روسيا أشد الرفض لانهم كانوا يرون - والحق معهم - أن أخذ هذين الموقعين يجعل الاستانة في خطر مستمر من جهة روسيا ولذلك أقفل باب المخبرات وعادت الحرب بين الدولتين. فأمرت القيصرة (رومانتسوف) جنرال الجيش الروسى بأن يسير وراء الدانوب ويحمل على العثمانيين فسار بأمرها الجيش الروسى يوم ١٣ يونيو سنة ١٧٧٣ وحمل على (سيلستريا) (وهى مدينة ببلاد البلغار) ولكن الجيش العثماني انتصر عليه انتصاراً عظيماً وقطع عليه خط الرجعة حتى فقد الجيش الروسى معظم رجاله. فقام عندئذ الجنرال فيسمان الروسى بعمل جملة مناورات اضطرت الاتراك للرجوع الى الورااء. وقد مات فى هذه المناورات الجنرال فيسمان نفسه ولكنه أعاد للجيش الروسى بعض قوته

وقد رأت روسيا عندئذ ان مصلحتها تقضى عليها بعقد الصلح مع الدولة العلية خصوصاً وان جيوشها انهزمت هزيمة شديدة بالقرب من (وارنا) وان أهل القرم أظهروا ميلهم للانضمام مع جلالة السلطان ضد روسيا. فضلاً عن أن ثورة

أهلية قامت في روسيا تحت قيادة رجل اسمه (بوجاتشيف) كانت تهدد القيصرية ومملكها . فلذلك طلبت روسيا من النمسا التوسط بينها وبين الدولة العلية في أمر الصلح مقابل جزء تعطاه من أملاك تركيا نفسها

وفي ذلك الحين توفي المرحوم السلطان (مصطفى الثالث) وتولى بعده السلطان (عبد الحميد الأول) فأمر باستمرار الحرب ولكنها عادت بخسائر جمة علي الدولة لان الجيش كان غير مستعد للقتال بعد الحروب الطويلة التي قام بها . فاضطر الصدر الاعظم الي عرض الصلح علي الجنرال (روماتسوف) . وتم الاتفاق بينهما في ١٠ يوليو سنة ١٧٧٤ وأمضيا بعد ذلك في ٢١ يوليو سنة ١٧٧٤ علي عهدة الصلح بمدينة (كوتشك قاينارجه) . وهي أشهر عهدة أمضت عليها الدولة العلية والحجر الاول للمسئلة الشرقية وعنوان النزاع بين المسيحية والاسلام وأصل الحروب الطويلة التي وجهت ضد الدولة في القرن التاسع عشر والازمات الشداد التي وقعت فيها

وشروط هذه المعاهدة ان الدولة العلية تتنازل للروسيا عن الكاباردا وتضع مقاطعات الدانوب تحت حمايتها وتعلن استقلال بلاد القرم تحت ضمانتها وتتنازل لها عن (أزوف) (وكرانش) و (بني قلعة) وتعطيها حق الملاحة في البحر الاسود وشبه حماية معنوية على رعايا الدولة العلية المسيحيين عموماً والارثوذكسيين منهم خصوصاً

وهذا الشرط الاخير كان ولا يزال آفة الدولة العلية في علاقاتها مع دول أوروبا فكما تتداخل في شؤون الدولة باسم المسيحية واذا قامت الحرب بينها وبين احدى الدول كانت العلة المسيحية وحقوقها. وان سياسة روسيا مع الدولة العلية في القرن الثامن عشر كانت كسياستها مع مملكة بولونيا المتحدة تخلق لنفسها حزبا في قلب المملكة يخلق لها الاضطرابات والمشاكل عند الحاجة لتتداخل في شؤون المملكة الداخلية باسم هذا الحزب وبمجة نصرته. ولكن هذه السياسة التي افلحت في بولونيا تماماً بفضل النمسا والبروسيا لم تفلح في تركيا تماماً كما كانت تؤمله روسيا لما عند العثمانيين من الشهامة الحقيقية

ولما لجيشهم من القوة الهائلة ولما بين الدول الأوروبية من الشقاق والاختلاف بشأن أمور تركيا ومسائل الشرق أما النمسا فقد انتهزت فرصة اشتغال روسيا وتركيا بأمر الصالح ووضعت يدها على جزء مهم من البغدان وعرضت على روسيا مقابل ذلك مشروعاً يتضمن تحالفها معها ضد الدولة العلية !

ولم توقع الحكومة العثمانية نهائياً على معاهدة (قائارجيه) الا يوم ٢٤ يناير سنة ١٧٧٥

ولم يمض على هذه المعاهدة زمن يسير حتى أحدثت روسيا في بلاد القرم الاضطرابات بفضل الدخلاء العاملين بأمرها وأرسلت جيشاً جراراً الى داخل البلاد بدعوى تسكين الاضطرابات. ولكن غرضها الحقيقي كان الاستيلاء على بلاد القرم وبالفعل استولت عليها وظهر للعيان أن روسيا انما كانت تعمل لاخراج هذه البلاد من حوزة الدولة العلية وان بذل جهدها في سبيل اعلان استقلالها لم يكن الا ليسهل لها الاستيلاء عليها. وقد احتجت الدولة العلية ضد هذا

العمل المخالف لشروط معاهدة (قائنا رجه) وأرادت اعلان الحرب ضد روسيا ولكنها رجعت عن عزمها بنصاح فرنسا التي كانت تعلم ان روسيا والنمسا متفقتان على تقويض أركان السلطنة العثمانية

ولكن روسيا كانت تبذل أقصى الجهد للوصول الى اعلان الحرب بينها وبين تركيا فأرسلت مبعوثين من عندها لتهيج بلاد اليونان والافلاق والبغدان ضد السلطنة السنية ونشرت الجواسيس في أنحاء الدولة العلية ليحدثوا فيها القلاقل ويخلقوا الاضطرابات فلما رأت الدولة العلية ذلك وأن لامناص لها من الحرب طلبت من سفير روسيا بالاستئانة أن يخبر دولته في تسليم حاكم الافلاق الذي عصى أمر الدولة والتجأ الى روسيا وفي عزل قناصل روسيا المهيجين للاهالي في بلاد الدولة وفي منح الدولة العلية حق تفتيش مراكب روسيا التجارية التي تمر من بوزاز الاستانة

فرفضت روسيا هذه الطلبات وكان ذلك الرفض اعلانا للحرب بينها وبين الدولة العلية

ولما كانت النمسا متفقة مع روسيا على مساعدتها
ضد تركيا أرسل جوزيف الثاني امبراطور النمسا جيشاً
عظيماً لمحاربة الأتراك والاستيلاء على مدينة (بلغراد) فانهزم
جيشه أمام العثمانيين واضطر للعودة الى مدينة (تمسوار)
ببلاد المجر حيث اقتفى أثره الجيش التركي وهزمه هزيمة
عظيمة

أما الجيش الروسي فقد استولى في هذه الاثناء على
مدينة « أوزى » وبينما الجيش العثماني يقاوم جيش روسيا
والنمسا اذ مات المرحوم السلطان (عبد الحميد الاول) في ٧
ابريل سنة ١٧٨٩ وتولى بعده السلطان الغازي (سليم خان
الثالث) حيث أمور الدولة مرثبة والحرب قائمة على قدم
وساق. وقد انتهز الروسيون فرصة انتقال الملك في الدولة
العلية واتحدوا مع النمساويين في الحركات العسكرية وتولى
القيادة العامة قائد واحد « فاتصر الجيشان على جيش الدولة
واستولى الروسيون على مدينة « بندر » واحتلوا جزءاً عظيماً
من بلاد الافلاق والبغدان وبسرايينا ودخل النمساويون بلاد

الصرب ومدينة بلغراد

وقد مات حين ذاك جوزيف الثاني امبراطور النمسا
وعقبه على سرير المملكة النمساوية ليوبولد الثاني فسعى في
عقد الصلح مع الدولة العلية تخوفا من قيام النمساويين بالثورة
ضده تقليدا للامة الفرنسية التي كانت تأيرة وقتئذ ثورتها
الاولى الكبيرة ضد لويس السادس عشر. فعقدت عهدة
بين النمسا والدولة العلية في أغسطس سنة ١٧٩١ بمدينة
« زشتوى » وقد ردت النمسا الى الدولة العلية بمقتضى
هذه المعاهدة بلاد الصرب وبلغراد التي كانت في قبضتها
ولم تخسر الدولة العلية من هذه الحرب مع النمسا خسارة
تذكر

أما روسيا فقد استمرت بمفردها على محاربة الدولة
العلية حتى توسطت بينهما البروسيا وانكثرتا وهو لا نده فأمضيت
بينهما معاهدة بمدينة « ياش » أخذت روسيا بمقتضاها بلاد
القرم نهائيا ولسارايا والبلاد الواقعة بين نهري بوج دينستر
ومدينة « أوتشاكوف »

وبذلك انتهت هذه الأزمة الشديدة التي جاءت في

أواخر القرن الثامن عشر وكانت عنواناً لأزمات شداد

توالى بعد بعضها في القرن التاسع عشر. نأى عليها الواحدة

بعد الأخرى



المسئلة الشرقية

في

القرن التاسع عشر

ليس غرضنا أن نأتي في هذا الفصل على تاريخ الدولة العلية في القرن الحاضر بل على أشهر وأهم أزمات المسئلة الشرقية فلذلك نهمل الحوادث الصغار ونفصل الازمات الشداد أزيمة بعد أخرى

الازمة الاولى

استقلال اليونان

كل من قرأ تاريخ الدولة العلية يعلم أن المرحوم السلطان الغازى (محمد الثاني) لما فتح الاستانة أمن الناس على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم على أموالهم وأرواحهم ودياناتهم وتقائدهم حيث اتبع أوامر الشرع الشريف ونشر راية الاعتدال الدينى . فنال اليونانيون من هذه المعاملة الحسنة ما لم يكن يخطر لهم على بال من السعادة. والرفاهية ورأوا من سلطان

آل عثمان اكراماً لهم واحتراماً لدينهم ولرجال دينهم حتى
انه لما انتخب بطريقهم بعد فتح الاستانة قال له المرحوم
السلطان محمد الثانى : « كن بطريقاً لليونان والله يحميك :
وفى كل الاحوال والظروف اعتمد على مساعدتي وتمتع بكل
الامتيازات التى كانت لأسلافك من قبل »

وقد كانت هذه المعاملة الاسلامية فريدة فى نوعها
غريبة فى بابها فان الكاثوليكين أنفسهم كانوا يعاملون
اليونانيين بالاحترار والازدراء . ويستحيل على المؤرخين
أن ينكروا على محمد الفاتح وعلى المسلمين هذه الصفات العالية
والمكارم الجليلة التى ظهرت فى الاستانة بعد الفتح كشمس
تبدد الظلمات وآية من أكبر آيات الدين الاسلامى الباهر

وقد أدى هذا الاعتدال الدينى الى نمو التجارة فى ايدى
اليونانيين فصاروا بفضل الدولة العلية وبفضل تساهلها الدينى
أغنياء أثرياء عائشين فى أتم الراحة والهناء ولكنهم لم يحفظوا
للدولة العلية عهداً ولم يرعوا لها نعمة بل أنكروا المعروف
والجميل وصاروا فى الصف الاول من أرباب الدسائس العاملين

خُذ السلطنة العثمانية وأضر الآلات لأعداء الدولة في قلبها
وقد بلغت ثقة الدولة العلية برعاياها على اختلاف
دياناتهم وأجناسهم وحسن نواياها نحو المسيحيين المحكومين
بها أنها عينت لمقاطعات صربيا والافلاق والبغدان حكاما
من اليونانيين مؤمنة أنهم يخدمونها بصدق وأمانة كما
أكرمتهم وأكرمت أمتهم فكانوا الأعداء الألداء في ثياب
الأصدقاء الأماناء وعوضاً عن أن يقوموا بالواجب عليهم
نحو دولة رفعتهم إلى أسمى المناصب استعملوا سلطتهم ونفوذهم
في تهيج أهالي هذه البلاد ضد الدولة العلية والقاء بذور
الثورات والاضطرابات فيها

*
* *

وقد أسس الميهجون من اليونانيين جمعية في بلاد روسيا
اسمها (هيتري) — أي الجمعية اليونانية الوطنية — غرضها
استقلال اليونان والانتقام من الدين الإسلامي . وقد ساعد
القيصر هذه الجمعية كل المساعدة فأخذت تنمو وتنتشر
وأخذ الكثير من أعضائها يقتلون ويسلبون باسمها وبدعوى

المطالبة باستقلال اليونان . وكان (اسكندر ايسيلانتى) و (ديمتريوس ايسيلانتى) أهم أعضاء الهيئتين في خدمة القيصر الشخصية . وكان (كابوديستريا) زعيم الثورة اليونانية أبجد وزراء القيصر اسكندر الاول

وكان ابتداء الثورة اليونانية دخول (ايسيلانتى) في المقاطعات اليونانية في عام ١٨٢١ محرّضا على الثورة بلاد اليونان كلها . وقد اعتبر هذا العمل بايعاز من روسيا . وكان من البديهيّات أن (ايسيلانتى) الذى كان ضابطا بجمعيّة القيصر عمل ما عمل بأمر القيصر أو برضاه . وقد أتى (ايسيلانتى) نفسه بما يدل على ذلك حيث كتب فى دعوته للثورة . واذا اعتدى أحد من الأتراك على أراضى بلادكم فلا تخشوا له بأساً فان دولة عظيمة مستعدة لمعاقبه المعتدين عليكم»

ولم يكن بين دول أوروبا دولة تعارض هذه الحركة اليونانية مثل دولة النمسا فانها كانت تحيط الباب العالى علما بكل دسائس ثورويي اليونان وبكل تشجيعات روسيا لهم

وأعمالها السرية

أما انكلترا فكانت خطتها في بادىء الامر التظاهر بمساعدة تركيا ضد روسيا ومقاومة الحركة اليونانية أشد المقاومة . ولكن الدولة العلية أظهرت شكها في نوايا بريطانيا لعلمها بطمعها وجشعها وكراهتها الحقيقية للاسلام . خصوصا وان سوء قصدتها كان قد ظهر باستيلائها على الجزائر اليونانية . وقد جاءت الايام مبرهنة بأسطم برهان على ان الدولة العلية كانت مصيبة في سوء ظنها بالانكاز فقد انقلبت انكلترا في مسألة الثورة اليونانية ضد الدولة العلية كل الانقلاب وغيرت كراهتها الاولى لليونانيين بالحبة العلية والمساعدة الظاهرة

ولما علمت النمسا بأعمال روسيا ومساعدتها لليونانيين بذل وزيرها الاول (مترنيخ) الشهير أقصى جهده لدى القيصر اسكندر الاول ليعيد السكون الى بلاد اليونان ويأمر الثورويين بعدم القيام في وجه حكومة المرحوم السلطان محمود والامثال والخضوع لاوامر الدولة . وقد أظهر مترنيخ

للقيصر اسكندر الاول مقدار الخطر الذي ينتج عن اشتعال نار الفتنة والثورة في بلاد اليونان مبيناً له ان تعضيده لثورة اليونان يكون داعياً لا تتشار الثورة في كل أنحاء أوروبا ضد الملوك . فأثرت هذه الاقوال على القيصر اسكندر الاول وأعلن رسمياً غضبه وسخطه على ايسيلانتي ووجه ملامه لليونانيين ناصحاً لهم بالسكينة والانصياع لحكم الدولة العلية ولكن هذه التصريحات العلنية لم تكن الا ترضية وقتية للنمسا التي كانت مضطربة الاحوال لاشتغالها بقمع الثورة الايطالية التي قامت وقتئذ في وجهها . ولم يرجع القيصر اسكندر الاول عن عزمه بل صار يتظاهر علناً بحبة السلم والميل الى الانصاف مع الدولة العلية وهو يكمن لها في الباطن السوء والضرر منتظراً الفرص المناسبة

أما ايسيلانتي فقد هزمته الدولة هو ورجاله شر هزيمة واضطر الى الهروب في ترانسلفانيا حيث قبضت عليه النمسا وسجنته لغاية عام ١٨٢٧ . وقد أسس ثوار اليونان بالرغم عن شدت وط ايسيلانتي في قبضة النمسا مجالس أهلية ومجلسا عموميا

لهم كبرلمان يونانى

✽
✽

وما انتشر فى أوروبا خبر قيام اليونانيين بالثورة ضد
الدولة العلية حتى تظاهر الكثيرون من الكتاب والشعراء
بتعريضهم والاتصار لثورتهم ضد المسلمين . وأول من جاهر
بالاقتصار لليونانيين وبالنداء باستقلالهم هو اللورد (بيرون)
الشاعر الانكليزى . فقد هاجر من بلاده وعاش غربياً ينشد
مجد اليونان السالف وينادى أوروبا بمساعدة أبناء اليونان
ونصرتهم . وقد أثرت كتاباته وأشعاره فى أغلب بلاد
أوروبا وجرى على سنته الكثير من شعراء فرنسا وكتابها
وفى مقدمتهم (فيكتور هوغو) الشاعر الشهير . وأسست
اللجان المختلفة فى فرنسا وانكلترا لمساعدة اليونانيين بالمال
والرجال . وسافر المتطوعون من كل بلد فى أوروبا ومن
كل جانب

وقد قامت الحركة كلها فى بلاد أوروبا باسم معارف
اليونان وأنوارها القديمة وباسم الدين المسيحى . فكنت تجد

الكتاب الذين لا دين لهم ولا عقيدة في أفئدتهم يدافعون عن
اليونانيين باسم الدين المسيحى ويوجهون الى الاسلام أقبح
السياب وأدنى الشتائم

وكان أنصار اليونانيين يحسبونهم كأبائهم الاولين متى
نالوا حريتهم واستقلالهم بزغت شمس المعارف والآداب
والفلسفة من بلادهم وعادت أتيناً مشرقاً لانوار الحكمة
والعرفان . والذين كانوا ينتصرون لليونانيين مؤملين هذا
الامل كانوا اما متعصبين فى الدين ضد المسلمين يحملهم بعضهم
على اعتقاد فاسد كهذا أو كانوا سليمى النية . فلقد برهن
اليونانيون بعد استقلالهم على ان بينهم وبين اليونانيين
القدماء بونا بعيدا وفرقا عظيما

ولا ريب ان أولئك الذين كانوا ينتظرون شروق أنوار
الحكمة والفلسفة العالية من أبناء أتيناً الحاليين تحسروا
طويلا واندهشوا منتهى الاندهاش من خطئهم فى آمالهم
هذا الخطأ الكبير واعتدائهم بغير حق على السلطنة السنية
التي كانوا يقولون عنها انها المانعة لترقى اليونان والواقفة فى

سبيل شروق شمس الحكمة والعرفان من آتينا «
ومن الغريب ان أغلب أنصار اليونانيين ان لم نقل
كلهم كانوا يجهلون تمام الجهل بلاد اليونان وأهلها. على
أنهم لو كانوا أرسلوا بعض الوفود لزيارة هذه البلاد
والوقوف على حقيقتها وحقيقة أهلها لكانوا أدركوا أنهم
مخطئون خطأ كبيراً وان آمالهم البعيدة حلم لا حقيقة له
ويستحيل أن يكون له وجود

وقد أنصف بعض الكتاب الأوربيين الدولة العلية
وأظهروا للعالم المتمدن الحقيقة التي لامرأ فيها وفضحوا
أعمال اليونانيين حتى خجل أنصارهم. وفي مقدمة هؤلاء
الكتاب الفضلاء (الفريدليتر) الفرنساوى فقد وضع
كتاباً على استقلال اليونان كشف فيه الغطاء عن أمور عديدة
تشرف الدولة العلية وترفع من مقامها أمام التاريخ وتشهر
أكاذيب أنصار اليونان اللمة

ومن المستندات الرسمية العديدة التي أوردها حضرة
المؤلف السالف الذكر عريضة رفعها جماعة من الفرنسيين

كانوا سافروا الى بلاد اليونان لنصرة الثائرين فيها الى أميرال البحرية الفرنسية ساوية بالبحر الابيض المتوسط يسألونه فيها أن يردهم الى فرنسا . وهذه العريضة تترجم للقاريء عن الحقيقة وعن أكاذيب أنصار اليونان وقد جاء فيها : « وقد وصفوا لنا اليونانيين قبل سفرنا من فرنسا بشجعان وأبطال يفوقون آباءهم الاولين شهامة ومجداً . فما وجدنا هنا الا رجالا يحملهم حب المال على حب الجرائم وأناسا لا يزالون في ظلمات الجهالة والوحشية »

وقد كتب القومندان (بوجول) في مذكراته عن

ثورة اليونان بتاريخ ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٢٢ ما تعريبه :

وقد جئت الشرق وأنا من أكبر أنصار هذه الامة

(اليونانية) ولم يتغير اعتقادي فيها واحسبى نحوها الا

بالتجربة . فهي مجردة عن الوطنية والشجاعة والاتحاد وهم

كل رئيس من رؤسائها أن يكون غنياً وقد بلغت الفوضى

حدها في بلاد اليونان . وأغلب أعضاء حكومتها — وكلهم

محتقرون أشد الاحتقار — معروفون من الجميع بأنهم

المسلحون للصوص البحار . ولولا تداخل الدول لخضع
اليونانيون جميعا هذا العام . واعترافا بالجميل نحو أمم أوروبا
لا يزال اللصوص اليونانيون يعتمدون على تجارة هذه الأمم
تسها ! »

وكتب الأمير (ريني) أميرال الاساطيل الفرنسية
بالبحر الأبيض المتوسط من أزمير بتاريخ ٢٣ مارس سنة ١٨٢٦
ماتعريه :

لقد تغش أوروبا بشأن كل ما يختص بثورة اليونانيين
ضد تركيا . فقد تنقص المستندات الرسمية وليس من عادة
الأتراك ان ينشروها . والتقارير اليونانية ليست الامراسلات
خصوصية تجسم فيها الامور وتمر على (زانت) و (كورفو)
والنمسا قبل ان تلونها الجرائد في لوندرد وباريس بالالوان
الساطعة البهية . ولكنها في أغلب الاحيان ألوان كاذبة . ولا
شك ان هذا هو اللازم للتأثير على أفكار العالم . وإكبر هذا
لا يكفي لانارة أفكار الذين يقودون زمام الامور



وقد انتهز اليونانيون فرصة قيام (على باشا) والى يازيه ضد الدولة العلية لاحداث الاضطرابات والهيجان في كل انحاء بلاد اليونان . فقد طغى هذا الباشا وعضى الدولة العلية وأراد الاستقلال والخروج من تحت السلطة الشرعية فصار يعمل لاستمالة اليونانيين اليه ضد الدولة العثمانية . ولكن أطماعه الشديدة وأخلاقه الشرسة أكثر من أعدائه بالرغم عن تعلقه لليونانيين وتفاقه

وسبب عصيانه على الدولة ان اسماعيل باشا اكبر أصدقائه وأول المقرين اليه وقع بينه وبينه خلاف شديد أدى الى هروب اسماعيل باشا الى الاستانة حيث تعين فيها بالحرس السلطاني وأبلغ رجال الدولة أعمال هذا الرجل وسوء نواياه . فقررت الدولة عزل ابنه الذى كان حاكما لتساليا . فاغتاظ على باشا من ذلك وأرسل أحد أتباعه من الالبانيين الى الاستانة لقتل اسماعيل باشا . وبالفعل قتله هذا الالبانى عند ذهابه للصلاة .

وقد اعلمت الدولة وقتئذ بان الانكاز يشجعون على
باشا على رفع لواء العصيان ضد الدولة العلية ووقفت على كل
مراسلاته مع اليونانيين فامتلات غيظاً منه واعتبر خائناً
للدولة والملة وأصدر شيخ الاسلام منشوراً للمسلمين باعتباره
خارجاً على الدولة كافراً بنعمتها .

وقد أمرته الدولة بالحضور الى الاستانة في ظرف
أربعين يوماً فخالف أمرها وصمم على معاداتها والقيام في
وجهها . وصار يجتهد في استمالة المسلمين اليه فلما لم يفلح لانهم
جميعاً اعتبروه خائناً وخارجاً من دين الاسلام مال الى
اليونانيين وصار يتقرب منهم ويستنصر بهم ضد الدولة ويوزع
الاموال عليهم ولما أراد الانتفاع بهذا الود سألهم بتاريخ
٢٤ مايو سنة ١٨٢٠ تكوين جيش ينصره ضد الدولة . ولكن
اليونانيين الذين كانوا يعرفون أخذ الاموال وسماع المدائح
وبدائع الاقوال من هذا الطاغية كانوا يعرفون من أنفسهم
انهم عاجزون عن تقديم الاسلحة والرجال فلم يجيبوا للعاصي
طلباً ولم يلبوا له نداء بل بقى يناديهم وهم صامتون حتى اقترب

منه الجيش العثماني . فلم يجد له مخرجاً من ورطته الا حرق مدينة « يانينا » والالتجاء الى جزيرة كان بنى فيها قلعة حصينة جمع فيها كل ذخائره وأمواله

وقد كان يقود الجيش العثماني ضده خورشيد باشا حاكم الموره فوصل بمهارته وحكمته الى دخول القلعة التي كان ملتجئاً اليها هذا المتمرد ولما لم يجد على باشا لنفسه سبيلا غير التسليم سلم نفسه لخورشيد باشا الذي أتمذ أمر الدولة بقتله عقاباً له على تمرده وعصيانه . وفي أوائل فبراير سنة ١٨٢٢ أرسل برأسه الى الاستانة لتعلق في مكان عام انذاراً لكل عدو للدولة ولكل خائن

*
* *

وقد انتهز اليونانيون فرصة عصيان على باشا والى يانينا وأخذوا يسلبون وينهبون في كل انحاء اليونان وجعلوا المورة منبع الثورات والاضطرابات نخلوها من العدد الكافي من الجنود العثمانية . وفي ٥ مارس عام ١٨٢١ دخل من يدعى (كارافيا) وهو يوناني تعلم الجندية في روسيا في ميناء

(جالاثر) - وهو ميناء من رومانيا على الدانوب - وهجم على قلعتها برجاله العديدين حيث نهبوا وسلبوا وقتلوا من في المدينة كلها وأسالوا الدماء وخربوا المنازل . وقد أشاع اليونانيون عندئذ في كل اصقاع العالم ان ما أتوه في هذا الميناء الصغير الذي لا يكاد يوجد به جنود يعد انتصارا كبيرا على الدولة العثمانية وعملا عظيما . وهاج كذلك أعضاء الهيئتي بمدينة (ياسى) واحتالوا على حرسها وكان مكونا من خمسين رجلا فأفهموهم ان الاهالى عازمون على الثورة وقطع دابر الاتراك ولكنهم ان تجردوا من أسلحتهم وبنادقهم توطد الامن فى المدينة وعادت الامور الى السكينة والسلام فانخرت رئيس الحرس وظن ان أعضاء الهيئتي صادقون فى أقوالهم فأجاب طلبهم وأمر الجنود بالتجرد من السلاح والذخائر الحربية . فقابل اليونانيون هذا العمل بأن نشروا لواء النهب والسلب فى المدينة ورفعوا راية الفتك بالمسلمين فقتلوا الكثير منهم بلا تمييز بين الرجال والنساء والاطفال . ولما جاء (ايسيلانتى) زعيم جمعية الهيئتي استحسن هذه الفظائع

والمنكرات ووافق عليها باسم الانتقام من الاسلام والمطالبة بالحرية :

وقد كانت جمعية الهيترى تهدد الاغنياء من اليونانيين بالقتل ان لم يساعدوها بالمال — وقد اتبعت هذه الخطة نفسها جمعية ثوار الارمن مع اغنياء الطائفة الارمنية — وحصل ان (ايسيلانتى) المذكور لما جاء مدينة (ياسى) علم بوجود يونانى عظيم الثروة اسمه (بول اندرياس) فألقى القبض عليه بدعوى انه اختاس أموالا كثيرة من أموال الهيترى فأدرك الرجل ان هذه التهمة ألقيت عليه ليقدم لايسيلانتى شيئا من المال ففعل ذلك وكان فى فعله نجاته

وقد أحدثت هذه القذائف التى جرت فى (ياسى) فى كل بلاد اليونان فرحا شديدا واشتاقت نفوس أهاليها للسلب والنهب وذبح المسلمين باسم الحرية والدين ! وقد يجد الانسان فى بعض الكتب المتضرر أصحابها لليونان فصولا طويلة على هذه المذامح المختلفة والجرائم العديدة ومن هذه المؤلفات أشهرها مؤلف المسيو (بوكفيل)

المسمى (محطة الشرق) فقد جاء بالرغم عن شدة تعصب المؤلف ضد المسلمين بحقائق منجبل منها كل انسان يحترم الانسانية ومحبا

ولما كانت المورة كما قدمنا منبعا للثورات والاضطرابات حاصر اليونانيون مدينة (مونبازيا) فقاوم أهلها الحصار طويلا حتى فقدوا كل الذخائر والمأكولات . وكان يقود اليونانيين وقتئذ (ديمتريوس ايسيلانتى) فاستعمل الخداع للاستيلاء على هذه المدينة وأعلن أهلها بأنه يحترم أملاكهم وأموالهم ويحترم قبل كل شيء أرواحهم اذا سلموا المدينة وانه يساعدهم على الرحيل منها اذا أرادوا ذلك . فصدق أهل هذه المدينة الشقية كلام (ايسيلانتى) وسلموا القلعة والاسلحة فدخل اليونانيون المدينة وأول شيء قاموا به هو أنهم لم يحترموا الرئاسهم قولا ولا عهدا بل هتكوا الاعراض ونهبوا الاموال وقتلوا النساء والاطفال قبل الرجال

وانه ليسهل على القارىء أن يتمثل قوماً لاسلح بأيديهم ولا قوة تحميهم يهجم عليهم جماعة من أشرار

اليونانيين وهم متساحون بأنواع السلاح ويتمثل مناظر المعارك
الدموية التي تجرى بينهم ودفاع الموت الذي يدافع به
المسلمون عن نساءهم وأطفالهم
وقد كتب الكونت أميرال الفرنسي (هاجان) في
عام ١٨٢١ تقريراً عن دخول اليونانيين الى (مونبازيا)
جاء فيه

« وقد وجد في قلعة مونبازيا ثلاثمائة يوناني لم يكتف
الأتراك أيام الحصار بمعاملتهم بالحسنى بل عاملوهم كخوتهم.
الحقيقيين أثناء المجاعة واحترموا كنائسهم كل الاحترام.
ولكن يونانيوالموره لم يعاملوا الأتراك بنفس هذه المعاملة
عند ما أخذوا المدينة . بل أتوا بأشنع القبائح وأفظعها في
مساجد الأتراك

« أما المسجونون فقد أرسلوا بغير زاد الى « كاسوميس »
ووجدت علي الأرض العائلات الاسلامية التسعة تنازع
نزاع الموت من الجوع والعطش وهي نائمة على الاحجار . وحوالي
الجزيرة وجدت جثث القتلى ، وبالرغم عن ذلك كله فقد أراد

اليونانيون ضرب هاته العائلات بالرصاص . ولم تنج من أيديهم الا بفضل المسيو « دى بوتفور » الذي هدد اليونانيين وأخذ كل الاتراك الموجودين بهذه الجهة في سفينة مخاطبا ضباط اليونانيين بأن ماعملوه هم ورجالهم لا يأتي به الا لصوص البحار !

وهذا التقرير وحده يشهد بأبدع بيان على أن أنصار اليونان في أوروبا كذبوا على العالم كله الا كاذب الشيعة وان الجرائم والفظائع الدموية التي جرت في بلاد اليونان لم يأتها الا اليونانيون ضد المسلمين

وان الفيلسوف ليقف مندهشا امام هذه الدنيا والجرائم ويعجب كيف ان شعراء أوروبا وكتابها كانوا ينتصرون لقوم لا تغذى ارواحهم الا بدمج الابرياء ولا تستريح نفوسهم الا الى الجرائم . فهل كان ينتظر شعراء أوروبا وكتابها من هؤلاء القوم الذين كتب عنهم ضباط أوروبا نفسها وبعض من أفاضل كتابها ماقرأه القارىء أن يعيدوا الربوع اليونان مجدها السالف وأن يردوا للوجود أتيننا

مشرقاً لآنوار الحكمة والعرفان ؟؟

وقد استولى ثوار اليونان في ١٩ أغسطس سنة ١٨٢١ على مدينة (ناورين) الشهيرة وأتوا فيها من الفظائع ما لم تره عين ولم تسمع به أذن وكتب عن هذه الفظائع القس الارثوذكسي (فرانتزيس) ما ترجمته

وكانت البنات التي تريد الهروب من أيدي القتل تجرى نحو شاطئ البحر وعلى أجسادها أثر الرصاص . ومع ذلك كانت ترمى وتقتل . وكانت النساء يحمل أكثرهن الاطفال على الذراع فيمزق المعتدون ملابسهن . والتي كانت تلقى بنفسها الى البحر لتستر عورتها كانت ترمى كذلك بالرصاص وتقتل . وقد هشمت رؤوس بعض الاطفال الذين اختطفوا من أمهاتهم . وألقى اليونانيون في عميق البحار بناتاً وأطفالاً لم يتجاوز أغلبهم الرابعة أو الخامسة من العمر كأنهم قطع من لحوم الكلاب »

وفي ٥ اكتوبر نفسها استولى ثوار اليونان بعد حصار

طويل على مدينة (تريبوليتزا) . وانه يستحيل على كاتب شرقى أو غربى مهما كانت بلاغته وقوة انشائه وعظيم تأثيره ان يصف المذابح الهائلة البهيمية - أو التي لا اسم لها - التي أتاها اليونانيون . بل يكفي القارىء ان يعلم ان اليونانيين ذبحوا في (تريبوليتزا) ثمانية آلاف من الرجال وفوق ذلك من النساء وان المذابح استمرت ثلاثة أيام كاملات حتى فسد الجو وتغير الهواء وانتشر من بعدها الوباء حيث عم كل بلاد اليونان وجاء من المنتقم الجبار منتقماً للأبرياء الشهداء من الظالمين المجرمين السافكين للدماء

وقد كتب أغلب كتاب أوروبا الا من أعمالهم الغرض والتعصب على هذه الفظائع ووصفوها كما تستحق فقال عنها الكاتب الانكليزى (فنلى) المشهور - وكان قد شهد الحادثة بعينه - في كتابه (تاريخ اليونان) :

« ان منظر هذه المذابح لا يعادله منظر فى تاريخ البشر لاني فظاعته ولا فى طول مدته »

وقد أحدثت هذه الفظائع فى الاستانة تأثيراً شديداً

جداً وهاج الاهالى طالبين عقاب اليونانيين الذين لهم يد
فى جمعية الهيترى . فقام عندئذ شيخ الاسلام ونصح المسلمين
بالسكينة والاعتدال وعدم الاعتداء على الابرياء انتقاماً من
الآفكين (وسيرى القارىء ان اليونانيين كافأوا شيخ
الاسلام هذا بأن قتلوه هو وعائلته بعد نداءه فى صالح
الابرياء منهم)

فلما علم المرحوم (السلطان محمود) بما عمله اليونانيون
بدسائس جمعية الهيترى أمر بتفتيش منازل بعض اليونانيين
المشتبه فيهم وعمل تحقيق تام على كل الذين اشتبه فى أمرهم .
فأبان التحقيق اداة الكثيرين من اليونانيين ومنهم
(موروزى) الذى كان للسلطان به ثقة عظمى فاستعملها فى
تبليغ أعضاء الهيترى أسرار السياسة العثمانية . والبطريق
(جريجورىوس) فأمر السلطان باعدام الجميع عبرة لغيرهم من
المفسدين والثوار

أما فى أتيننا فقد اتبع اليونانيون خطهم الدموية بنفسها
فأسالوا الدماء بكثرة عظيمة ولم يرحموا أحداً من المسلمين

وقد انتشر بعض أعضاء الهيئتين في أزمير وجعلوا
غايتهن جمع الاموال بأدنى الوسائل وأسفل الطرق واللقاء
الخوف والرعب في نفوس اليونانيين المقيمين بأزمير .
فأشاعوا الاشاعات المختلفة عن نوايا الدولة العلية نحو اليونانيين
حتى اضطرت العائلات اليونانية كلها الى المهاجرة من أزمير
فاستفاد أعضاء الهيئتين من هذه المهاجرة انهم جمعوا أموالاً
كثيرة وأوهموا أوروبا بأن سبب هذه المهاجرة ظلم الدولة
العلية وسوء معاملتها لليونانيين !!!

ومما يؤكد ذلك ان أحد رجال فرنسا بعث من أزمير
بكتاب الى وزير البحرية الفرنسية في ذلك الحين جاء فيه :
« وقد أشاع في كل أنحاء المدينة رجال يعملون على جمع
الاموال بكل الوسائل الدنيئة الاشاعات المزعجة للخواطر
بشأن نوايا الاتراك . فمتى علم الاهالي بأن أحد بواخرنا
تقصد ميناء الارخبيل تأتينا العائلات اليونانية وتسالني من
كل جانب السفر على هذه البواخر . وقد يطول بي الامر
اذا أردت أن أشرح لسعادتكم كل الوسائل التي يعلها الشره

وسوء القصد علي رجال يعملون لجمع الاموال بدعوى
الانسانية وانه يجب ان يكون الانسان هنا ليعتقد ذلك «
وقد استعملت هذه الوسائل في جهات مختلفة وأهاج
ثوار اليونان كل المسيحيين في البلاد اليونانية اما بدعوى
الدين واما بالتهديدات والانذارات

أما في الارخبيل فقد جعل اليونانيون همهم الاكبر
السرقة واللصوصية والقتل والسلب والنهب . وقد كانت
الدولة العلية استخدمت الكثيرين من أبناء اليونان في بحريتها
ثقة منها بهم كثقتها بكل رعاياها على اختلاف ديناتهم
وأجناسهم . فلما قامت الثورة اليونانية ترك البحرية العثمانية
كل اليونانيين الموظفين بها فعاق ذلك الدولة العلية عن قمع
الثورة في الارخبيل كما قمعها بعد في بلاد اليونان نفسها

وقد قدمنا فيما سبق ان شيخ الاسلام أصدر منشورا
بالاستانة نصح فيه المسلمين بالسكينة وعدم الاعتداء على
الابرياء من اليونانيين وقتلنا ان مكافأته من هؤلاء كانت
للقتل . وذلك ان المرحوم السلطان (محمود) عزله من منصبه

لهياج الشعب ضده . فغادر الاستانة على باخرة عثمانية قاصدا
بلاد الحجاز . ولما وصلت الباخرة الارخبيل هجمت عليها
بعض السفن اليونانية وضايقتها من كل جانب حتى أسرتها
وأخذت مافيها من الاموال والخيرات . ولما رأى البحارة
اليونانيون ان شيخ الاسلام وعائلته بين ركاب السفينة
قبضوا على بناته وذبحوهن أمامه وألقوا بهن الى البحر ثم قتلوا
كل من بالسفينة على مشهد منه حتى صار وحده أمامهم
فقتلوه شر قتلة جزاء له على نصحه المسلمين بالسكينة وعدم
الاعتداء على الابرياء من بني اليونان !!

*
* *

وقد أحدثت مذابح اليونان تأثيراً شديداً في روسيا
فقام القسس ورجال الدين يحرضون الاهالي ورجال الحكومة
على أن يطلبوا من القيصر الانتقام من الهلال للصليب وطرده
الاتراك المسلمين من بلاد اليونان المسيحية . ومع ان اليونانيين
هم الذين اعتدوا على المسلمين وأتوا الفظائع الجسام فان أنصار
اليونان في أوروبا مملأوا الارض بكاء وعويلاً واتهموا الدولة

العلية بانها تذبح الابرياء وتسفك الدماء . فأرسل عندئذ
القيصر (اسكندر) انذارا للدولة العلية على يد سفيره بالاستانة
المسيو (ستروجونوف) جاء فيه

« ان الباب العالى يجبر المسيحية على أن تتساءل اذا
كانت تستطيع أن تنظر بغير حراك الى اباداة أمة مسيحية
وترضى بهذه الاهدانات الموجهة للدين المسيحى » . وطلب
القيصر من الدولة العلية فى مذكرته هذه طلبات ملؤها
التهديد والوعيد

وفى الوقت نفسه أرسل الى الدول الاوروية مذكرة
يفسر فيها لها خطته وسلوكه ويسألها عن الخطة التى تنوى
كل واحدة منها اتباعها اذا قامت الحرب بين روسيا والدولة
العلية . وعلى أى صورة ترضى كل منها تقسيم الدولة
العلية

فكان القيصر اسكندر الاول يريد بثورة اليونان تقسيم
الدولة العلية وبلوغ أمانيه من الاستانة والبوسفور
أما الدولة العلية فقد أجابت على انذار روسيا بتعاية

الشرف والشهامة غير خائفة تهدديها ووعيدها . فترك عندئذ
سفير روسيا الإستانة وأعلن في ٨ أغسطس سنة ١٨٢١
انقطاع العلائق السياسية بين الدولتين فلما رأت النمسا ذلك
خافت النتائج الهائلة والعواقب الوخيمة التي تنتج عن الحرب
بين تركيا وروسيا واتفقت مع انكلترا على مقاومة روسيا
ومعارضة أغراضها واتحدت معها على منع الحرب بين الدولة
العلية وبينها بكل الوسائل فكتبت وزارة لوندرة كما كتبت
وزارة فيينا الى القيصر تعارض مشروعاته وتعمده بالتوسط
مع النمسا لدى الباب العالي لنوال ترضية لروسيا . فقبل
القيصر توسط النمسا وانكلترا وأطاع نصائحهما . وبالنعل
توصل سياسة النمسا وانكلترا الى منع الحرب بين روسيا
وتركيا

ولا يحسن القارىء ان توسط انكلترا مع النمسا لمنع
الحرب بين الدولة العلية وروسيا كانت تقصد به انكلترا
خدمة تركيا أو مساعدتها . بل الحقيقة ان الانكليز لما رأوا
الروسيا تسعى لجعل بلاد اليونان تحت حمايتها المعنوية

واستخدامها في سبيل سياستها قاموا في وجهها وردوها عن محاربة تركيا ثم تظاهروا بعدئذ بنصرة اليونان أكثر منها حتى حول اليونانيون أنظارهم الى بريطانيا وصار للانكليز النفوذ الاول في اليونان . حيث شكلوا في لوندرة الجمعيات العديدة لمساعدة اليونان ونصرتهم ولم يتأخر ماليا انكلترا عن تسليف مبالغ طائلة لحكومة اليونان الثورية . فصارت انكلترا بذلك أول عدوة للدولة العلية وأول دولة منتصرة لليونان .

وفي أوائل عام ١٨٢٣ صار حاكم الجزائر اليونانية الانكليزي الذي كان يعامل قبل هذا الحين ثوار اليونان بغاية القساوة والشدة يحميهم ويساعدهم ويتركهم يتآمرون في جزائره ضد الدولة العلية .

ولما رأت الدولة ان الاضطرابات قد كثرت في بلاد اليونان وان الثورة قد عمت كل أنحاء طلبت من المرحوم (محمد علي باشا) عزيز مصر ان يمددها بالرجال فأجاب الطلب وأرسل جيشا جرارا على أساطيل مصر تحت قيادة ابنه

المرحوم (ابراهيم باشا)

وفي أثناء تأهب المصريين للدخول في بلاد اليونان كانت الدول الاوروبية تتناقش في سان بطرسبورغ في أمر المسئلة اليونانية ولكن انكلترا كانت تعمل على عدم نجاح المؤتمر حتى يكون لها حرية تامة في العمل . وغاية ما أقر عليه هذا المؤتمر هو ان الدول الاوروبية تطالب من الباب العالي ان يعطى أمة اليونان شيئا من الحرية والاستقلال في ادارتها . وقد أجاب الباب العالي على هذا الطلب بانه لا يهب اليونانيين حقا جديدا الا بعد تمام خضوعهم وانه لا يقبل مطلقا تدخل أية دولة أوروبية أو كل الدول بينه وبين رعاياه

*
* *

أما المصريون فقد أتوا في بلاد اليونان من الاعمال ما يخلده لهم التاريخ وما يحق لمصر ان تفتخر به في كل آن وفي كل زمان . فانهم خدموا الدولة العلية أكبر الخدم وأجلها وبرهنوا على ان المصري اذا تعلم وتربى يقوم بأشرف الاعمال وأعظمها . فقد هزم المصريون اليونانيين شرهزيمة واستولوا

على كل بلادهم حتى ارتفعت أصوات أنصار اليونان في أوروبا
ضدهم وسموا بطل مصر المرحوم (ابراهيم باشا) بالسفاح
اظهاراً لغيظهم من رجل قام بالواجب عليه نحو دولته وأمتة
وملته .

وقد قدمنا فيما سبق ان البحرية العثمانية كان أغلب
عمالها من اليونانيين وكانت غير قادرة على قطع دابر اللصوص
من الارخبيل وحدها فلما طلب المرحوم السلطان (محمود)
من عزيز مصر ان يمدد برجاله وسفنه أمر المرحوم (محمد
علي باشا) بإرسال أساطيل مصر الفخمة الى مياه الارخبيل
فاستعدت البواخر في الاسكندرية . ورأى عندئذ هذا
الميناء الزاهر مظهر جلال مصر وقوتها في البحر مما لم تر له
طول حياتها مثيلاً . وكان الرأي المنتشر حين ذلك بين قناصل
دول أوروبا في مصر ان مصر بقوتها وسلطتها تقهر وحدها
بلاد اليونان وتعيدها خاضعة للدولة العلية قبل تمام ستة أشهر
وقد أتمت مصر تجهيزاتها الحربية في ٩ يونيو سنة ١٨٢٤
وكان الاسطول المصرى مركبا من ثلاث وستين مركبا

حرية عظيمة ومن ثمانية آلاف جندي مصرى من خيرة الرجال . وكان مع الاسطول والجيش ذخيرة سنتين كاملتين وبعد مبارحة الجنود المصرية لشعر الاسكندرية وقفت بجزيرة (كاكسوس) وأخضعها وقهرت أهلها الذين كان أغلبهم يعيش من النهب والسلب . وبعد ذلك بقليل استولى الاميرال التركي خسرو باشا على «ايسارا» التي أتى أهلها من قبل اخضاع الدولة لها من الفظائع ما يعجز القلم عن وصفه حتى أنهم قتلوا الكثيرين من أهل ساموس لعدم رضاهم بدفع شبه جزية لهم

وما أخذ المصريون والأتراك هذين الموقعين المهمين حتى نادى أنصار اليونان في أوروبا بالويل والشبور ونشروا الاكاذيب والمفتريات عن دخول العثمانيين في هذين البلدين مدعين أنهم ذبحوا الأبرياء وقتلوا الأطفال والنساء . هذه العبارات نفسها التي تذكر في كل خلاف يقع بين المسلمين والمسيحيين في الدولة العلية والتي لا تتغير وان تغيرت الظروف والحوادث

وفي أول سبتمبر عام ١٨٢٤ اجتمع المصريون والاتراك في خليج (بودرون) تحت القيادة العامة لخسرو باشا. فلما علم (مياوليس) رئيس بحرية ثوار اليونان باجتماع هذه القوى العظيمة جمع سفن الثوار كلها بين (كوس) وجزيرة (كاباري) فوجه عندئذ (ابراهيم باشا) أسطوله الى جزيرة كريد حيث كان وصلها من الاسكندرية جنود أخرى وأسلحة وذخائر جديدة وجرى حين ذلك ان البحارة اليونانيين الذين كانوا تحت قيادة (مياوليس) طالبوه بما هيأتهم ومرتباتهم الماضية وأنذروه بأنهم يعودون الى جزائرهم ولا يبقون بسفنه اذا لم يعطهم هذه المرتبات. فخار (مياوليس) في أمره مع هؤلاء القوم الذين كان يظنهم شجعاناً أبطالا وخداما للوطن اليوناني والذين كان يسميهم أنصار اليونان في أوروبا برجال الحرية والاستقلال وبورثة اليونانيين القدماء !!!

فاضطر عندئذ (مياوليس) الى الذهاب الى مدينة (بوبيلي). وقد كانت هذه المدينة مركز حكومة اليونان الثورية

أما (ابراهيم باشا) فقد أتم كل تجهيزاته ومعداته وسار
بأسطوله وجنوده قاصداً (مودون) بالمورة حيث وصلها في
٢٤ فبراير سنة ١٨٢٥ . وما استقر بها حتى أخذ يهيء الجيش
للقتال والحرب . وفي ٢٥ مارس من السنة نفسها بدأ المصريون
بمحاصرة مدينة (ناورين) الشهيرة ومدينة (بيلوس)
ولا يسلم القارىء عن مقدار الاحتقار والازدراء الذى
كان يظهره اليونانيون نحو الجنود المصرية المظفرة فقد كانوا
يظنونهم نساء في الحرب يهربون من ساحة القتال لاول طلقة
نارية . ولكنهم لما اقتربوا منهم عرفوا أن أمامهم شجعانا
كباراً وأبطالاً يحق لمصر على مدى الدهر أن تفتخر بهم
كل الفخار وحق لمحمد على ولائنه الكريم وقتئذ ويحق
لسلاتهما من بعد ان تفاخر بهم جنود أعظم الامم المتمدنة
وفي كل واقعة حدثت بين المصريين واليونانيين كان
اليونانيون يولون الادبار ويهربون مسلمين البلاد والمواقع !
وقد رأى (ابراهيم باشا) ان الاستيلاء على (ناورين)
لا يكون الا بالاستيلاء على جزيرة (سفاكتيريا) فارسل

اليها حسين بك الجريدى المشهور بشهامته العظيمة ونظره
الصائب فى مسائل الاستحكامات العسكرية. فقهر جنود هذه
الجزيرة اليونانية واستولى عليها . وما مضى الا ثلاثة أيام على
استيلائه عليها حتى فتح أهالى (ييلوس) أبوابها وسألوا
(ابراهيم باشا) أن يتركهم يهربون بدون ان يلحق بهم الاذى
فقبل ذلك (ابراهيم باشا) وكانت نتيجة تسامحه الجميل ان
أهالى (ناورين) لما تضايقوا من طول الحصار ويئسوا من
الامر خاروه فى أمر تسليم المدينة اليه بعين الشروط التى
سلمت بها (ييلوس) فرضى ابن عزيز مصر بطلبهم وسقطت
(ناورين) فى أيدي المصريين فى شهر مايو سنة ١٨٢٥

ولما رأى (ابراهيم باشا) ان اليونانيين امتلأت قلوبهم
بالخوف منه ومن جنوده الاعزاء شرع فى مهاجمة مدائن
الموره ومعاقبها فاستولى بدون صعوبة تذكر على (نيزى)
و (كالاماتا) وبلغ (تريبوليتسا) التى تركها اليونانيون
وتركوا فيها ذخائرهم من شدة تسرعهم فى الهروب منها .
وفى ٢٦ يونيو من سنة ١٨٢٥ استولى (ابراهيم باشا) على

مدينة (أرجوس)

وقد جعل اليونانيون دأبهم وقتئذ حرق مساكنهم
ومعاقلمهم ومنازلهم وتخریب المدائن والقرى . وكان أنصار
اليونان في أوروبا يكذبون على العالم كله ويدعون ان ابراهيم
باشا هو الذى يخرّب مدائن اليونان . وقد بلغت قجة بعضهم
ان سماه بالسفاح !

أما خسرو باشا فقد صدرت اليه أوامر الدولة بأن
يسافر بأسطوله الى الاسكندرية حيث يستعد المرحوم (محمد
على باشا) لارسال مدد جديد . فسافر اليها وكان المرحوم
(ابراهيم باشا) أرسل كذلك بأسطوله اليها وبقى هو وجنوده
في الموره . فاهتم أمير مصر رحمه الله بتجنيد الجنود حتى
تهيئوا جميعاً وكان عددهم احد عشر ألف مقاتل وسافروا
من الاسكندرية بتاريخ ٢٣ اكتوبر سنة ١٨٢٥ . وكان في
ذلك الحين (رشيد باشا) محاصراً لمدينة « ميسولونجى » التى
كان المدد يصلها من اليونانيين من جهة البر وكانت محاطة
ببرك عفنة انتشرت منها الامراض والحميات فى جيش رشيد

باشا مما أطلال الحصار وأضر بالجيش العثماني ضرراً بليغاً .
ولما علم بذلك (ابراهيم باشا) سافر بجنوده الى (ميسولونجى)
وكانت الجنود المصرية وصلت عندئذ من مصر برفقة خسرو
باشا فقوى عدد الجيش المصرى التركى المحاصر لهذه المدينة .
وفى ٩ مارس سنة ١٨٢٦ استولى الجيش على قلعة (فازليادى)
وفى ١٣ منه سقطت (اتاليكون) فى أيدى العثمانيين ولما
رأى قواد الجيش المصرى التركى ان (ميسولونجى) واقعة
فى أيديهم لا محالة وانها ان وقعت بغير التسليم من سكانها
أسيلت فيها الدماء كتبوا الى أهلها بتسليم المدينة والاسلحة
وخروج من يشاء الخروج منها وأعلنوا كل من يريد البقاء
فيها انه يبقى آمناً مطمئناً

وقد جاء عندئذ (مياوليس) بأسطوله ووقف فى خايج
(باتراس) ولكن الاسطول المصرى التركى هزمه شرهزيمة
وقضى بهذه الهزيمة على كل آمال اليونانيين

وقد أراد اليونانيون المقيمون بميسولونجى الهجوم على
الجيش المصرى التركى فى مساء ٢٢ ابريل سنة ١٨٢٦ ولكن

(ابراهيم باشا) وجنوده تنهبوا للامر وأطلقوا الرصاص عليهم فحصل بين اليونانيين فزع شديد وولوا الادبار وفي فجر يوم ٢٣ ابريل من السنة نفسها أى في اليوم التالى سقطت مدينة (ميسولونجى) فى أيدى الجنود العثمانية .

وفى شهر يونيو سنة ١٨٢٧ استولى الجيش العثماني على مدينة (آتينا) عاصمة اليونان الحالية . وقد أعجب كل منصف محب للانسانية بالخطة التى جرى عليها العثمانيون فى دخولهم آتينا حيث عاملوا أهلها بالرفق ولم يقتلوا ولم يهينوا أحدا ما بخلاف ما عمله اليونانيون مع المسلمين عند استيلائهم فى أول الثورة اليونانية على المدائن والقرى

وتفصيل أخذ آتينا بالعثمانيين ان اليونانيين استدعوا اليهم اللورد (كوشران) والسير (روبرشرش) الانكليزيين ليقودا جيوشهم وعصابتهم فأجابا الطلب وسافرا الى اليونان وتوليا رئاسة الجيش اليونانى المحاصر فى آتينا

وقد أبدى الجيش العثماني بقيادة (رشيد باشا) فى محاصرة آتينا من المهارة والشهامة ما أبقي له ذكرا عاطرا فى

التاريخ . فقد جمع هذا القائد العثماني الجليل بين منتهى الشهامة
العثمانية ومنتهى الانسانية التي أمر بها الشرع الشريف
وان انتصار جيش (رشيد باشا) على توار اليونان في
آتينامن الانتصارات المعدودة في تاريخ الحروب البشرية .
فقد كاد السير (روبرشرش) نفسه يقع أسيرا في قبضة
العثمانيين لولا انه عند الهزيمة ألقى بنفسه الى البحر حتى أدرك
مركباً كانت بالقرب من الشاطئ .

ولما رأى القائدان الانكليزيان ان لامناص من التسليم
وسقوط آتينا وقلاعها في أيدي العثمانيين سألا قومندان
مركب (جومون) الفرنسي ان يتوسط بين اليونانيين
والعثمانيين في أمر الصلح فاجاب سؤالها وكتب بذلك الى
(رشيد باشا) فقبل القائد العثماني الشروط التي عرضها عليه
المسيو (لوبلان) قومندان مركب (جومون) وهي نزع
السلاح من الجنود اليونانية وترك الحرية المطلقة لكل من
أراد السفر من آتينا ومعاملة الذين يريدون البقاء فيها بالحسنى
وعلى الخصوص الجرحى منهم . ولما علم السير (شرش)

يقبول (رشيد باشا) لهذه الشروط فرح كثيرا واندهش غاية الاندهاش من هذا الاعتدال العظيم الذي أظهره ظافر كبير كرشيد باشا

ولكن ثوار اليونان أرادوا أن يظهروا شيئا من الشهامة التي كان يترنم بها أنصارهم في أوروبا فرفضوا هذه الشروط وأبوا تسليم قلاع أتينا . ولو كان (رشيد باشا) رجلا وحشيا كما قال عنه ذلك كذبا أنصار اليونان في أوروبا لكان دخل أتينا جوابا على وقاحة ثوار اليونان وشهامتهم الكاذبة وقضى عليهم وعلى جنودهم وضباطهم شر قضاء ولكنه تأني في الأمر واستعمل الذعة التي جبل عليها رعاية للبرياء من سكان أتينا الا ان (رشيد باشا) أنذر السير (شرش) بأنه اذا لم تسلّم أتينا وقلاعها للجيش العثماني في أقرب زمن هاجم المدينة وكان حرا في عمله غير ملوم . فأرسل السير (شرش) بتاريخ ١٢ مايو سنة ١٨٢٧ اعلانا لثوار أتينا وضباطها أمرهم فيه بوجوب التسليم وأنذرهم بسوء العاقبة ان خالفوا أمره ولكن ثوار أتينا جروا على خطتهم الاولى ورفضوا

الامثال لاوامر السير (شرش) أى لاوامر قائدهم ورئيسهم
فلما رأى ذلك (رشيد باشا) كتب الى المسيو (لوبلان)
قومندان مركب (جومون) كتابا فى غاية اللطف والرقه
أظهر فيه انه عمل كل ما فى وسعه للمحافظة على أرواح الأبرياء
اليونانيين القاطنين بآتيننا ولكن خطة ثوارهم تحمله على اتخاذ
طريقة أخرى للاستيلاء على آتيننا . وعندئذ أعلن السير
(شرش) ثوار آتيننا بأنه يتركهم وأنفسهم لعدم امتثالهم
لاوامره . فوقعوا فى حيص بيص وارتبكوا أشد الارتباك
وانتهزوا فرصة وجود مركب نمساوية فى الميناء فسألوا
قومندانها التوسط بينهم وبين (رشيد باشا) فى أمر تسليم
المدينة وقلاعها بطريقة سلمية . فسلم هذا الضابط النمساوى
طلبهم للمسيو (دى رينى) قومندان مركب (سيرين)
النمساوية فاستلم هذا الأخير الطلب وأخذ يخبر (رشيد
باشا) مدة ثلاثة أيام حتى قبل القائد العثمانى دخول آتيننا
بالسلم وعدم سفك الدماء . وفى يوم ٥ يونيو سنة ١٨٢٧
أمضى زعماء الثورة اليونانية بآتيننا على شروط تسليم المدينة

ورحلوا جميعا عنها بعد ذلك

وقد كتب المؤرخ الانكليزي (فلي) في كتابه (تاريخ اليونان) عن خطة (رشيد باشا) ودخوله آتينا ما تعرييه :
« لقد اكتسب (رشيد باشا) في سقوط آتينا بخبطه التي جرى عليها شرفا أبديا . وظهر فوق السير (روبرشرش) شهامة في الحرب ورأيا في السلم . ولم يترك العثمانيون وسيلة من وسائل الاحتراس الا أتوها . ولم ينتقموا أقل انتقام من اليونانيين »

*
* *

وقد توفي في أول ديسمبر عام ١٨٢٥ القيصر اسكندر الاول وتولى بعده (نيقولا الاول) . وما جلس هذا القيصر علي أريكة الملك حتي أعلن عدااه لتركيا وأرسل للحكومة العثمانية بتاريخ ١٧ مارس سنة ١٨٢٦ إنذارا يطلب منها فيه جملة طلبات مختصة بالافلاق والبغدان وبلاد الصرب وترك لها مهلة ستة أسابيع لقبول طلباته وأنذرها بأنها ان لم تقبل هذه الطلبات انقطعت العلاقات السياسية بين الدولتين واشتعلت

نيران الحرب

فانتهزت انكلترا هذه الفرصة للتقرب من روسيا وأرسلت في بادئ الامر الى بلاد اليونان ثم الى الاستانة سفيرا يعرض توسط انكلترا بين الدولة العلية واليونان فرفضت الدولة طلبه بعد ان قبله اليونانيون الذين كانوا في أسوأ الحالات بفضل (ابراهيم باشا) بطل مصر وابن عزيزها فاغتازت انكلترا من الدولة وعملت علي الاضرار بمصالحها والانتقام منها وأرسلت (والنجتون) الشهير - بطل واترلو التي هزم فيها نابليون - الى سان بطرسبورغ ليتفق مع القيصر علي المسئلة اليونانية ضد الدولة العلية وبالفعل اتفق معه وأمضى بينهما اتفاق يتضمن ان روسيا تقبل توسط انكلترا بين الدولة العلية واليونان وان بلاد اليونان تصير مستقلة استقلالاً نوعياً وانها تختار بنفسها حاكماً عليها ومن الغريب ان انكلترا لما لم تفلح في أمر التوسط بين الدولة العلية واليونان أرادت أن تتوسط بالقوة والقهر وبالرغم عن الدولة العلية نفسها مستعينة في ذلك بالروسيا .

وهكذا كانت انكلترا تفهم معنى صداقتها لتركيا ومعنى
اخلاصها لملك آل عثمان.

ولما رأى المرحوم السلطان (محمود الثاني) ان انكلترا
والروسيا متفتتان ضده اضطر الى قبول مطالب روسيا
منتظرا الفرص المناسبة . وأرسل مندوبين من قبله للمخاطبة
مع مندوبي روسيا في أمر عقد معاهدة بين الدولتين . وقد
اجتمع المندوبون في (آق كرمان) ووضعوا بها في سبتمبر
عام ١٨٢٦ عهدة سميت باسم هذه المدينة تضمنت ان يكون
للروسيا حق الملاحة في البحر الاسود والمرور من البوغازين
بدون ان تفتش الدولة سفنها وأن تكون بلاد الصرب مستقلة
تقريبا وتضمنت كذلك بعض شروط مختلفة بامتيازات
الافلاق والبغدان

ويقول بعض المؤرخين ان الذي حمل تركيا على قبول
هذه المعاهدة غير اتفاق انكلترا والروسيا ضدها هو تعهد
الروسيا صريحا للحكومة العثمانية بعدم التداخل في صالح
اليونان

وقد اجتهدت انكلترا بعد عقد هذه المعاهدة في استمالة
فرنسا لها وللروسيا وتوصلت الى عقد اتفاق بينها وبين
الدولتين لمساعدة اليونان ضد تركيا أمضى عليه في لوندرة
بتاريخ ٦ يوليو سنة ١٨٢٧

*
* *

وقد كان هذا الاتفاق أساسا لواقعة (ناورين) الشهيرة
فان الدول الثلاث لما رأَت ان (ابراهيم باشا) فاز في المورة
وانتصر نصراً ميبناً واخضع اليونانيين كافة وان الثورة قاربت
الانتهاء وأخذ لهيبها في الانطفاء أمرت كل واحدة منها أميرال
أسطولها بأن ينذر (ابراهيم باشا) بالوقوف عن كل عمل
عدائي ضد اليونانيين وبالعودة الى الاسكندرية مع رجاله
وأسطوله . فرفض (ابراهيم باشا) هذا الطلب أو هذا
الإنذار قائلاً لكل أميرال انه لا يتبع غير أوامر أبيه وأوامر
الدولة العلية . ولكنه لما رأى من قواد الاساطيل الأوروبية
استعدادهم لاشهار الحرب لاسطوله وعدم برفع بلاغهم الى
الاستانة والى والده الجليل . واتفق معهم على هدنة وقتية

لحين ورود أوامر الدولة وأوامر أبيه

ولكن قواد الاساطيل لم يعملوا باتفاقهم مع (ابراهيم باشا) بل أخذوا يراقبون حركاته وسكناته ويشجعون خلافا لشروط الهدنة كل ضابط يوناني أو أوروبي في خدمة اليونان على مهاجمة المدائن والمواقع التي وقعت في قبضة (ابراهيم باشا) وجنوده فشجعوا اللورد كوشران على مهاجمة قلعة (فازيلادى) كما شجعوا غيره من الضباط . وقد احتج (ابراهيم باشا) على هذه الاعمال ولما رأى ان احتجاجه لدى قواد الاساطيل الاوروبية لم ينفذ شيئا وتحقق من تشجيعهم اللورد كوشران على مهاجمة مدينة (باتراس) خرج من ميناء (ناورين) مع بعض مرآكبه لانقاذ تلك المدينة التي كان بها فوق الالف مصرى . ولكن الاسطول الانكليزى أنذر (ابراهيم باشا) بالعودة الى (ناورين) فعاد هو وأسطوله احتراماً للهدنة التي كان يذكره بها قواد الاساطيل الاوروبية وكانوا لا يذكرون بها أنفسهم وجرى عندئذ ان (ابراهيم باشا) نزل الى البر وتوغل

في المورد فانتبهز قواد الاساطيل الدولية. فرصة غيابه عن
الاساطيل المصرية العثمانية وأجمعوا على تدميرها . فأصدر
الاميرال (كودرنجتون) الانكيزي — الذي كانت له
القيادة العامة على الاساطيل الفرنسية والروسية
والانكيزية — أمره باستعداد السفن الدولية وعين لكل
سفينة مكانها وألقى التعليمات اللازمة لكل ضابط يقود
مركبا . وفي يوم ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧ ادعى الاميرال
(كودرنجتون) ان مركبا من المراكب المصرية قتل أحد
بحارته انكيزيا من سفينة انكيزية . وجعل هذه الجريمة
المختلفة سببا لتدمير المراكب المصرية والتركية فسلط عليها
الاساطيل المتحدة الدولية حتي دمرتها عن آخرها وزالت
هذه الاساطيل الفخمة في يوم واحد حيث كان قومندانها
الاول وأميرها الاعظم (ابراهيم باشا) متغيبا عنها ظلانا أن
قواد الاساطيل الاوروبية يحترمون كلامهم وعهودهم !
ويقدر المؤرخون عدد الذين ماتوا من بحارة مصر في
هذه المذبحة الشهيرة بستة آلاف بحري . وقد عد أنصار اليونان

مذبحة (ناورين) بواقعة المجد والفخار . أما أنصار الحقيقة فقد قضوا عليها شر قضاء ووجهوا الملام أشد الملام الى حكومات فرنسا والروسيا وانكلترا التي قامت باسم المدنية بأمر ليس فيه الا العار والشنار . وقد قال امبراطور النمسا وقتئذ عن حادثة « ناورين » بانها « مذبحة » !! ونعم التسمية وقال عنها جورج الرابع نفسه ملك انكلترا انها « حادثة مشثومة »

وقد تهيج الاحرار في انكلترا ضد الاميرال « كودرنجتون » واعتبروا عمله وحشيا لا شرف فيه ولا فخار فاضطرت الحكومة الانكليزية لان تعان عدم موافقتها على عمل « كودرنجتون » ولكنها لم تعلن عدم موافقتها على هذا العمل الفظيع الوحشي الا بعد حدوثه ويتضح من المستندات الرسمية التي لا تزال باقية في وزارة البحرية الفرنسية والتي أتت على بعضها المسيو « الفريدليتر » في كتابه عن استقلال اليونان ان حكومات فرنسا والروسيا وانكلترا كانت متفقة من قبل على كل ما أتاه قواد أساطيلها . وقد قال الاميرال

« كودرنجتون » لما علم بعدم موافقة حكومته على مذبحته
« ناورين » : « ان الوزراء يضحونني ليحفظوا مرا كزهم »
أما (ابراهيم باشا) فقد عاد بعد المذبحته ولا يسألن
القارىء عن تحسره الشديد على أسطوله العظيم الذى تركه
زاهيا قويا وعاد فوجده أثرا بعد عين وعن عظيم اندهاشه
من هذا العمل الفظيع الذى قام به دعاة المدنية وأنصار الحرية
والانسانية . وقد احتج (ابراهيم باشا) أشد الاحتجاج على
هذا العمل الوحشى وزاد احتجاجه واندهاشه عند ما علم
بالمطاعن السافلة التى كان يوجهها اليه الاميرال (كودرنجتون)
وبان هذا الانكليزى الذى دمر الاساطيل المصرية والتركية
بأسفل الطرق وأدنى الوسائل ادعى انه - أى ابراهيم باشا -
هو الخائن للعهد الناكث لشروط الهدنة وانه المسبب لواقعة
(ناورين)

وقد كتب الضابط الفرنساوى البحرى المسيو (بوجول)
تاريخ مذبحته « ناورين » وأتى فيها على كل ماقاله له (ابراهيم
باشا) عقب المذبحته . وانا نأتى هنا على ترجمة فصل يتضمن

تصريحات « ابراهيم باشا » بشأن تهمة الاميرال كودرنجتون .
كتب المسيو بوجول ما ترجمته :

« قال لي (ابراهيم باشا) عند زيارتي له : انهم يتهمون ابراهيم بأنه خان العهد ولم يحترم كلامه ولكنني مستعد لان أسافر لباريس وللو ندره اذا اقتضى الحال ذلك لآظهر الحقيقة ولكي يحمل الذين أسالوا دماء الابرياء وخدم النضيحة والملازمة . وما أنشئت السفن الا لتكون فريسة النار أو البحار فلذلك لست اليوم آسفا عليها . ولكن اتهمى باني خنت عهدى هو وشاية سافلة . واني أعتمد على شرفك يا حضرة الضابط لتبلغ كآبة بكآمة الى أميراك ما قلته لك .

فقل له ان ثانى يوم لواقعة « ناورين » دعا الاميرال الانكليزى الاميرال التركى الى مركب انكليزية ووشى له بانى قدمت اليه مبالغ طائلة ليساعدنى على الاستقلال بمصر من الدولة العلية ومن التابعة للحضرة السلطانية وقال له بانى خائن وأشار عليه بتبليغ ذلك للضباط والبحارة الاتراك . فماذا يقال عن هذا السلوك وعن هذا العش ؟ أوم تبليغ الوقاحة

بالاميرال الانكليزى انه طلب من الاميرال التركى ان
يسلمه امرأة من نسائى ؟ »

وانه ليسهل على القارىء ان يحكم بعد اطلاعه على أقوال
« ابراهيم باشا » أى الرجلين صادق . ابراهيم ذلك البطل
النادر المثال الذى عامل ثوار اليونان بعد انتصاره عليهم
النصر المين بالرأفة والرحمة وما سفك للابرياء دما . ذلك
الذى احترم عهده . أم كدرنجتون الذى تولى أمر تدمير
أساطيل لم تعاده أقل عداء وخان بذلك عهده وكلامه وشرفه
بل لطح أوروبا والمدنية الغربية بدنس الفضيحة والعار .

*
* *

و بينما كانت الدول الثلاث تتداخل لصالح اليونانيين
وتسفك دماء الابرياء لاجلهم وتدمر الاساطيل غدرا
لمساعدتهم ونصرتهم كان اليونانيون يهجمون على سفن التجارة
الاوروبية ويسرقون كل ما فيها من المتاجر والمصانع والاموال .
وقد أيد هذه الحقيقة الاميرال الفرنساوى « دى رينى » نفسه
وكتب جملة كتب على هذه السرقات الفظيعة والتعدييات

المتعددة الى وزارة البحرية الفرنسية وقد قال في كتاب
من كتبه (ان عدد السفن التي اعتدى اليونانيون عليها
وسرقوا ما بها بلغ في شهر واحد ستين سفينة) فليعجب
القارىء بقوم محارب أوروبا لاجلهم وتخون عهدها حبا فيهم
ويلطخ قواد أساطيلها شرفهم وشرف دولهم بمذبحة (ناورين)
وهم يجيئونها على هذا التناهي في الاحسان بالتناهي في اساءة
رعاياها وسرقة أمتعتهم وأموالهم ومتاجرهم ومصانعهم !!!

*
* *

وقد طلبت الحكومة العثمانية من الدول الثلاث ترضية
علنية لمذبحة « ناورين » فرفضت الدول طلبها ولم تكلف
يرفضه فقط بل طلبت منها ان تقبل مطالبها المشتركة بشأن
اليونان وان تعلن استقلالها فأجابت الدولة على هذا الطلب
الغريب بالاندهاش والاستغراب والرفض . فبارح عندئذ
سفراء انكلترا والروسيا وفرنسا الاستانة بتاريخ ٨ ديسمبر

سنة ١٨٢٧

وفي ١٢ ديسمبر من السنة نفسها تجدد بين الدول الثلاث

اتفاق لوندرة السالف الذكر . وأخذت روسيا من ذلك
العهد تعمل لاعلان الحرب بينها وبين الدولة العلية . وبتاريخ
١٦ ابريل سنة ١٨٢٨ أشهرت بالفعل اعلانها الحرب لتركيا .
وفي ٧ مايو اجتازت الجنود الروسية نهر (بروث)

ولاشك ان الدولة العلية كانت وقتئذ في أشد الاخطار
وكانت أزمتهاشديدة قوية فان روسيا أظهرت عداها لها
باشهار الحرب عليها . وانكثرا أظهرت عداها لها بمساعدة
اليونانيين في السر والجهر وبترك أسطولها واقفا في مياه
الشرق يهدد موانئها وبعقدالمؤتمرات المختلفة لاعلان استقلال
اليرنان بالرغم عن اخضاع (ابراهيم باشا) لثورويهم وانصاف
نار الفتنة . وفرنسا اشتركت في هذه العداوة بارسال جيش
جرار تحت قيادة الجنرال « ميزون » الى بلاد اليونان

وقدرأى عندئذ المرحوم « محمد علي باشا » بنظره
الصائب ان الدول الثلاث متفقة كلها ضد الدولة العلية وأنه
مأمورية مصر قد انتهت بقمع الثورة اليونانية فأصدر أمره
الى ابنه المرحوم (ابراهيم باشا) بالعودة هو وجنوده الى

الوطن العزيز فصدع بأمر والده وعاد لمصر . حيث احتلت
الجنود الفرنسية المواقع والبلاد التي أخلتها جنود مصر
وبذلك يرى القارىء ان الدول الثلاث كانت تعمل في
آن واحد ضد الدولة العلية وكانت الدولة بلا نصير ينصرها
ولا صديق يساعدها وكانت النمسا تعضدها بالقول في
الباطن وتعلن في الظاهر صداقتها للروسيا شأنها في سياستها
على الدوام . فضلا عن ان الجيش العثماني كان حديث
التشكيل لان المرحوم السلطان (محمود) قد ألغى طائفة
الانكشارية

ومع ذلك فقد أظهرت الجنود العثمانية في الحرب مع
الروسيا من الشهامة والثبات ما حير رجال الحرب في أوروبا
وأدهش الروسيين . فان الجيش الروسى مع عظيم استعداده
وكثرة عدده لم يستول على « وارنا » الا بعد صعوبات جمة
ولم يستطع أخذ مدينة شوملا . واضطر للرجوع الى الورا
في شهرى اكتوبر ونوفمبر بعد ان خسر الخسائر الجمة . وقد
قارن وقتئذ (مترنيخ) وزير النمسا الاول تقهقر الروسيين

في هذه الحرب بتقهقر نابليون في عام ١٨١٢
وقد استمرت الحرب في عام ١٨٢٩ . ولكن الجنود
العثمانية التي كانت مشكلة حديثاً كما قدمنا لم تستطع مقاومة
الجيش الروسي تمام المقاومة فاستولى هذا الجيش على مدينة
(اسكي استانبول) واجتاز جبال البلقان وبلغ في ٢٠ أغسطس
سنة ١٨٢٩ مدينة (أدرنه) . وبالرغم عن هذه الانتصارات
فان القيصر نيقولا الاول كان يخاف الهزيمة لما رأى عند
الجيش العثماني من الدراية والكفاءة في سنة ١٨٢٨ ولذلك
سأل ملك بروسيا أن يتوسط في أمر الصلح بينه وبين الدولة
العلية . فقبل ملك بروسيا ذلك وتوسط بالفعل في أمر الصلح
وفي ٤ سبتمبر من السنة نفسها أمضت روسيا والدولة العلية
على معاهدة (أدرنه) . وهي تتضمن استيلاء الروس على جملة
مواقع اسيوية وضمانه حقوق الافلاق والبيغان وصربيا
وحرية مرور السفن الروسية من بوغازي الدردنيل والبوسفور
وحرية التجارة للرعايا الروسيين وتتضمن أيضا ان الدولة
العلية تدفع للروسيا غرامة حرية تبلغ الخمسة ملايين ونصف

من الجنيهات . وان الدولة العلية تقبل ما اتفقت عليه الدول
بشأن اليونان

وهذا الاتفاق بين الدول بشأن المسئلة اليونانية لم يكن
مشملا الا على جعل بلاد اليونان مستقلة تمام الاستقلال !
وقد أمضت الدول في لوندرة بتاريخ ٣ فبراير سنة ١٨٣٠ على
مجاهدة بهذا المعنى

وبذلك انتهت هذه الازمة الشديدة وتم استقلال
اليونان . وان القارىء يجد من خلال هذه السطور ومن
مطالعة هذه الحوادث الحكم الصحيح على خطة الدول نحو
الدولة العلية ويرى كيف انها أخرجت من تحت حكم الدولة
بلاد اليونان بحجة المسيحية والمدنية مع ان الروسية جزأت
من قبل مع البروسيا والنمسا بلاد بولونيا ولم ترع للمسيحية
حرمة ولا للمدنية مقامها !

وهكذا الغرض في كل الامور يعنى الدول كما يعنى

الافراد

الازمة الثانية ❦ -

﴿مسئلة الشام﴾

(بين مصر والدولة العلية)

ان هذه الازمة هي الازمة التي اذا تذكرها العثمانيون
والمسلمون امتلاً واحسرة وأسفا اكثر من كل أزمة سواها
لانها أعظم شقاق وقع بين التابع والمتبوع وبين مصر والدولة
العلية أى بين قلب الخلافة الاسلامية وهذه الخلافة نفسها
وبين روح المملكة العثمانية وهذه المملكة

وسيجد القارىء في هذا الفصل تفاصيل هذه الازمة
المشؤمة وما جرت على الدولة ومصر والاسلام من الاضرار
والمصائب مما يبقى أبد الدهر درساً للعثمانيين والمسلمين ونذيراً
يأن الشقاق بين أعضاء مجموع واحد يعود على المجموع كله
وعلى أعضائه عضواً عضواً بالمصائب العظام والبلايا الجسام
ابتدأت هذه الازمة بخلاف وقع بين عزيز مصر
ووالى (عكا) بسبب مهاجرة بعض المصريين الى الشام

حيث لم يرض والى (عكا) بأن يعيدهم الى مصر طبقا لرغائب
المرحوم (محمد علي باشا) . فأمر عزيز مصر ابنه المرحوم
(ابراهيم باشا) بالسفر الى بلاد الشام علي رأس جيش جرار
لانتقام من هذا الوالى فسافر واستولى في ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢
علي (عكا) وبعد الاستيلاء عليها دخل هو وجيشه دمشق
وحمص وعبر جبال طوروس بعد معارك مختلفة بين الجيش
المصرى والجيش التركى

وقد انتهت سنة ١٨٣٢ بوصول المرحوم (ابراهيم باشا)
الى قلب آسيا الصغرى حيث وقعت بين عساكر مصر
وعساكر الدولة واقعة (قونية) الشهيرة التي انتهت بسقوط
هذه المدينة فى أيدي المرحوم « ابراهيم باشا » . وكان ذلك
في ٢١ ديسمبر سنة ١٨٣٢ - وقد وقع فى هذه الواقعة أسيرا
فى أيدي المصريين المرحوم « رشيد باشا » الذى كان يقود
الجيش التركى امام « ابراهيم باشا » والذى كان من قبل فى
بلاد اليونان مكلفا بقمع الثورة اليونانية
ولا شك ان هذه الانتصارات المتوالية تدل من جهة

على ما كان لمصر وقتئذ من القوة الهائلة وتحمل الانسان من
جهة أخرى على التساؤل كيف تقهر الأتراك الإبطال في
هذه المواقع . فالجواب على ذلك ان المرحوم السلطان (محمود
الثاني) كان قد ألغى طائفة الانكشارية كما قدمنا وكان
مشتغلا بتنظيم جيش جديد عند ما قام المرحوم (محمد علي باشا)
ياحدات هذه الازمة المشؤمة ولم يكن الجيش التركي
الجديد مستعدا تمام الاستعداد للقتال

وكان من نتيجة هذا الخلاف المشؤم بين مصر والدولة
العلية ان المرحوم السلطان (محمود الثاني) اضطر للاستنصار
بالدول الأوروبية . فانهزت روسيا هذه الفرصة لتقوية
نفوذها في تركيا وجعل سيطرتها عظيمة على الباب العالي
فأظهرت للدولة العلية استعدادها لمساعدتها ضد عزيز مصر
وأرسلت الى الاستانبول الكونت (مورافيف) أحد ضباط
القيصر الخصوصيين مكافا بتبليغ الباب العالي ان الحكومة
الروسية تقدم اليه اذا أراد أسطولاً قويا وجيشا عظيما لنصرة
الدولة ضد عزيز مصر ومكافا كذلك بالسفر الى الاسكندرية

لاقناع المرحوم (محمد علي باشا) بضرورة الاتفاق مع الدولة
والرجوع عن نواياه ومشروعاته ضدها

وبالفعل ذهب (مورافيف) الى الاستانة فاستقبل
رجال الدولة بلاغه بالرضى مع الحزن الشديد على هذه الحالة
التي وصلوا اليها بسبب الشقاق المشؤم بين المتبوع الاعظم
والتابع أى بين خليفة الاسلام وأكبر أمراءه .

وقد سافر الكونت (مورافيف) من الاستانة الى
الاسكندرية فى يناير عام ١٨٣٣ بقصد اقناع عزيز مصر
بوجوب حل المشكلة حلا سلمياً

هذه كانت سياسة روسيا وسيرى القارىء نتائجها
السيئة على الدولة العثمانية . أما البروسيا فلم تتداخل فى الامر
بل تركت بقية الدول الاوروبية مشتغلة بالمسئلة وانتظرت
النتيجة . وقد ود بعض سواس النمسا أن تتداخل دولتهم فى
هذه الازمة المهمة لتحول دون أغراض روسيا ولكن
القابضين على أمور المملكة النمساوية حينئذ رأوا ان الثورة
تهدد دولهم من كل جانب وانهم فى حاجة شديدة لعض

الروسيا ومساعدتها فالتزموا لهذا السبب الحياد واختاروا سياسة مراقبة الحوادث والانتظار

أما انكترا فقد كانت أميالها من بادىء الامر ضد أميال عزيز مصر . ولكنها كانت تخاف اضعاف نفوذها في تركيا بتقوية نفوذ روسيا فكانت تريد العمل ضد روسيا ومساعدة تركيا في آن واحد غير ان ايرلندا كانت في ذلك الحين قائمة بالثورة ضد بريطانيا رغبة في نيل حريتها واستقلالها فبقيت لذلك انكترا مترددة في سياستها

ولم يكن لعزيز مصر بين الدول الاوروبية دولة تريد نصرته في السر والجهر غير فرنسا . فان رأى العام فيها كان يحب (محمد على باشا) حباً شديداً وكانت أعمال عزيز مصر ومجهوراته في سبيل رفع شأن مصر وتمدينها معروفة في فرنسا ومقدرة فيها حق قدرها لاسيما وان أغلب عمال عزيز مصر في تمدين مصر كانوا من الفرنسيين . وكان بين (لويس فيليب) ملك فرنسا وبين (محمد على باشا) مودة شديدة وصداقة متينة .

الا ان سفير فرنسا في الاستانة كان يخاف سقوط نفوذ دولته في المملكة العثمانية بقدر ارتفاعه وازدياده في مصر فعرض على الباب العالي ان يتوسط بينه وبين أمير مصر وكتب الي المرحوم « ابراهيم باشا » يرجوه باسم فرنسا الا يتقدم في فتوحاته وكتب الي المرحوم (محمد علي باشا) يسأله ان يقبل الشروط التي أرسل بها اليه المرحوم السلطان (محمود الثاني) مع خليل باشا . وهذه الشروط كانت تنحصر في تنازل الدولة لعزير مصر عن ولايات (عكا و نابلس وصيدا وبيت المقدس) . ولكن (محمد علي باشا) كان يريد الاستيلاء على الشام كلها وكان قنصل فرنسا بمصر يشجعه على أمياله وأغراضه . فلذلك لم يقبل عزير مصر الشروط السلطانية التي عرضها عليه خليل باشا ولم يلق رجاء سفير فرنسا بالاستانة عنده قبولا لانه اعتبره مجاملة لتركيا وغير صادر عن تعليمات سياسية واردة من الحكومة الفرنسية . وأمر ابنه المرحوم (ابراهيم باشا) بالتقدم في فتوحاته فصعد بالامر وتقدم الى ان وصل مدينة « كوتاهيه »

فلما علم المرحوم السلطان « محمود الثاني » بذلك سأل
الروسيا في آخر يناير سنة ١٨٣٣ أن ترسل اليه بأسطولها
فوعده بذلك . وفي هذه الاثناء عاد « مورافيف » من
الاسكندرية وكان قد نجح في مأموريته لدى « محمد علي باشا »
بعض النجاح فأعلن الباب العالي أن أمير مصر وعده وأصدر
أمره لابنه بالوقوف عن التقدم في فتوحاته . فلما علمت
الدول الاوروبية بذلك رأّت ان مجيء الاسطول الروسى
الى مياه البوسفور صار غير لازم فسألت الباب العالي ان
يجعل وقوفه ببلاد القرم ولكن الروسيا كان يهمنها ان يظهر
أسطولها في مياه الشرق ويعلم المسلمون قبل المسيحيين انها
صارت الحامية للمملكة العثمانية والامينة على مصالح دولة
آل عثمان !!!

فجاء الاسطول الروسى الى مياه البوسفور وجعل
مرساه امام سراى السلطان وبعد وصوله بأيام قليلة وصل
جزء من الجيش الروسى الى الاستانة وأقام بها . فهاجت
لذلك انكلترا والنمسا وفرنسا وطلبت من الدولة العلية

الإسراع بالاتفاق مع عزيز مصر وابعاد العساكر الروسية عن أراضي الدولة . فقبل المرحوم السلطان « محمود الثاني » طلب الدول الثلاث وبعد مخابرات مختلفة أعلنت الدولة العلية في أوائل مايو سنة ١٨٣٣ بخطين شريفين أنها عينت أمير مصر واليا على الشام وعلى ولاية « أطنه » . وقد سمي هذا الاتفاق الذي صدر به الخطان الشريفان باتفاق « كوتاهية » نسبة الي المدينة التي كان محتلا لها « ابراهيم باشا » عند عقد هذا الاتفاق

ولما صدر هذان الخطان الشريفان سألت الدول الاوروبية للدولة الروسية ان تسحب أسطولها من مياه البوسفور وجنودها من أراضي الدولة فأجابت الطلب ولكنها لم تنفذه الا بعد ان أمضت مع الدولة العلية على معاهدة « خورنكار اسكلهسي » التي جعلت للروسيا في الدولة العلية نفوذا قويا وسلطة عظيمة

ومضمون هذه المعاهدة ان الدولة العلية تتحالف مع روسيا تحالفا دفاعيا وان تتعهد كل واحدة منهما بمساعدة

الآخري في داخل بلادها أو في خارجها حسب الظروف .
ولا شك ان ظاهر هذه المعاهدة لا يفيد شيئاً غريباً ولكن
التأمل يرى ان الدولة الروسية كانت غير واقعة وقتئذ تحت
خطر . فكان من المستحيل ان ترسل الدولة العلية يوماً ما
جيشاً تركيا لداخل البلاد الروسية بخلافها فانها كانت واقعة
تحت خطر ظاهر وكان احتمال دخول الجنود الروسية الى
قلب المملكة العثمانية حاصلاً . ذلك فضلاً عن ان روسيا
كان في استطاعتها ان تحدث في قلب الدولة من الاضطرابات
ماتشاء لما كان لها فيها من الآلات القوية . أى انه كان
يمكنها ان ترسل بجنودها الى داخل الدولة في أى وقت تريد
والذي يثبت ان دخول الجيوش العثمانية الى قلب المملكة
الروسية كان مستحيلاً حتى في حالة قيام الحرب بين روسيا
وبين إحدى الدول خلافاً لظاهر معاهدة (خونكاراسكاهسى)
ان روسيا اشترطت في آخر المعاهدة ان الدولة العلية غير
ملزمة بارسال مدد عسكري اليها في حالة وقوع الحرب بينها
وبين إحدى الدول بل يكفيها غرضاً عن ارسال مدد

عسكري ان تقبل بوغاز الدردنيل أمام أساطيل الدولة أو
الدول المحاربة للروسيا

وقد علمت فرنسا وانكلترا بهذه المعاهدة وعملت
كلاهما على ابطالها ولكن مساعهما لم ينجح وتكدرت بذلك
علائقهما مع روسيا

*
* *

ولم يسر حكم هذا الاتفاق طويلا فان انكلترا التي
كان يسوءها استتباب السكينة والسلام في الشرق والتي
اقتضت سياستها في كل أطوار المسئلة الشرقية اضعاف سلطة
المسلمين عملت على تحريض الدولة العلية على الاخذ بالثار
والانتقام من عزيز مصر . وفضلا عن اهتمام انكلترا باضعاف
السلطة الاسلامية في الاستانة ومصر فانه كان يروق لها ان
تأخذ المركز الاول في النفوذ لدى الباب العالي وتخفض من
نفوذ روسيا وسلطتها . فلذاك استمرت تحرض الدولة على
الانتقام من (محمد علي باشا) ووجدت عند رجال الدولة
آذانا صاغية لان قلوبهم كانت قد تغيرت من جهة مصر

وأمرها وتركت فيها حوادث الشام آلاما كبارا
وقد نجحت انكلترا في هذه السياسة وعقدت مع
الباب العالي اتفاقا تجاريا ينحول لها كل ما للروسيا من الحقوق
والامتيازات وقابلت ثقة تركيا بها بان استعدت لاحتلال
(عدن) كأنها أرادت ان تعرف الحكومة العثمانية مقدار
ممن المودة الانكليزية....

ومع ذلك فقد اتبعت الدولة العلية آراء الانكليز
ونصائحهم وسيرت جيشا جرارا الى آسيا تحت قيادة (حافظ
باشا). فعبه هذا الجيش نهر الفرات في ٢١ ابريل سنة ١٨٣٩
وفي ٧ يونيو من السنة نفسها أعلنت الدولة العلية الحرب على
جيوش مصر. وقد كان المرحوم (محمد علي باشا) علم من
قبل باستعداد الدولة لمحاربه واخراجهم من الشام فتأهب
للقتال واستعدأ كمل استعداد

فلما علمت الدول الاوروية باستعداد الدولة العلية
للحرب اهتمت كلها بالمسئلة وأخذت انكلترا تبذل الجهد
في استماله فرنسا اليها والاتفاق معها على مساعدة تركيا ضد

(محمد علي باشا) واضعاف نفوذ روسيا في الدولة العلية .
ولكن فرنسا لم تقبل الاتفاق مع انكلترا ضد عزيز مصر
لما كان له عندها. وعند الشعب الفرنسي من الاحترام
العظيم والكلمة العليا

وقد قام وقتئذ الخطباء على منبر مجلس النواب الفرنسي
بالبقاء الخطب البليغة دفاعا عن أميال عزيز مصر وأغراضه
السياسية سائلين حكومتهم مساعدته ومنع كل عمل عدائي
ضده . ولم يظهر الرأي العام الفرنسي قوته وشدة تأثيره
على حكومته في ظروف كثيرة مثل ما أظهر في مسألة الخلاف
بين مصر والدولة العلية فانه كان منتصرا لعزيز مصر أشد
الاتصار

وقد أدى رفض فرنسا لطلب انكلترا الى اتفاق هذه
الدولة مع روسيا اتفاقا مبدئيا ضد عزيز مصر
أما النمسا فقد عرضت على الدول مشروع عقد مؤتمر
يفيينا لحل المشكلة المصرية . فلم تقبل روسيا هذا الطلب
خوفا من تداخل الدول في شؤون تركيا الداخلية واضعاف

تفوزها بمثل هذا التداخل . ورفضت فرنسا كذلك طلب
النمسا منعاً لاتفاق الدول ضد (محمد علي باشا)

وبينما الدول مشتغلة بهذا الخلاف الخطير اذ انتشر خبر
واقعة (نصيبين) أو « نزيب » التي اتصرف فيها الجيش المصري
بقيادة « ابراهيم باشا » على الجيش التركي في ٢٤ يونيو سنة
١٨٣٩ . وبعد هذه الواقعة بأسبوع واحد توفي المرحوم
السلطان (محمود الثاني) ولم تكن وصلته أخبار واقعة « نصيبين »
لعدم وجود الاسلاك البرقية وقتئذ . وتولى بعده على الأريكة
العثمانية ابنه السلطان الغازي (عبد المجيد خان)

وفي ٤ يوليو من السنة نفسها شرع أحمد باشا القبودان
الأول للأسطول العثماني في تسليم هذا الاسطول لعزير مصر
وسبب ذلك انه كان يبغض خسرو باشا الصدر الأعظم بغضاً
شديداً ويميل كثيراً الى عزير مصر . فلما علمت الدول
الأوروبية بهذا النبأ الغريب أرسلت مذكرة الى الباب العالي
بتاريخ ٢٧ يوليو سنة ١٨٣٩ تقيدها اهتمامتفة كلها على مساعدته
في هذه الازمة ودفع الخطر عن المملكة العثمانية . وقد

اشتركت فرنسا مع بقية الدول في ارسال هذه المذكرة ولم
يكن قصدها بذلك الاشتراك معها ضد (محمد علي باشا)
بل منع اتفاقها ضده اتفاقا حريا

وبناء على رجاء فرنسا لم يتقدم « ابراهيم باشا » بعد

« نصيين » بل وقف عندها

وقد عرض وقتئذ بالمرستون وزير خارجية انكلترا
على الدول الاوروبية ان ترسل جميعها انذارا لعزير مصر
تأمره فيه بسحب جنوده من الشام والاكتفاء بأمارته على
مصر وتهدهه بأنها تنفذ مطالبها بالقوة ان لم يرض بها ويذعن
اليها . فعارضت فرنسا مطالب بالمرستون أشد المعارضة وطلبت
باسم (محمد علي باشا) تعيينه أميرا على مصر والشام وبلاذ
العرب واستمر الجدل بين حكومتى باريس ولوندره طويلا
واشتدت لهجة السياسيين من الجانبين كما اشتدت لهجة جرائد
الدولتين وتكدرت عقب ذلك العلاقات بين الحكومتين .
فسعت روسيا في ان تضم اليها انكلترا وتجعل ما بين هذه
وفرنسا من الخلاف أساسا لوافق يوضع بينها وبين انكلترا

وأرسلت لهذا الغرض البارون دي (برونو) للبرنדרه .
ولكن بعض وزراء الحكومة الانكليزية كانوا يخالفون
بالمستون رأيا وكانوا يودون الاتفاق مع فرنسا . فلم يتم لهذا
السبب بين انكلترا والروسيا الاتفاق وعاد البارون دي
(برونو) الى سأن بطرسبورغ ليتلقى تعليمات جديدة

وقد زاد وقتئذ تهيج الشعب الفرنسي في صالح عزيز
مصر ازديادا هائلا وخاف « لويس فيليب » ملك فرنسا من
عواقب هذا التهيج فأمر بارجاع بقايا « نابليون الاول »
من جزيرة سانت هيلينه ودفنها بباريس في موكب حافل
ليشتغل الشعب الفرنسي عن مصر وأميرها بذكرى نابليون
الاول وذكرى فتوحاته وانتصاراته العديدة . وبالفعل جرى
بجثة نابليون الاول وسارت في باريس في موكب لم ير له مثيل
لا في جلاله ولا في فخامته . مما حول أنظار الشعب الفرنسي
عن مصر كثيرا اقليلًا

أما انكلترا فقد اتفق سواها مع البارون دي « برونو »
بعد عودته من روسيا ودعوا الدول الاوروبية لارسال

مندوبين من قبائها لحضور مؤتمر يعقد بلوندره لحل المشكلة المصرية . وقد اشتركت فرنسا في هذا المؤتمر غير ان سفيرها بلوندره المسيو « جيزو » الشهير وجه عنيته كلها لمد أجل المؤتمر ومنع الدول من الوصول الى اتفاق نهائي لأن الحكومة الفرنسية كانت مشغولة سرا بالتوسط بين تركيا ومصر وكانت تؤمل بلوغ نتيجة مرضية لعزيم مصر بدون تداخل الدول الاخرى .

وقد نجحت فرنسا في مخابراتها السرية مع مصر والباب العالي بعض النجاح وتوصلت الى عزل « خسرو باشا » الصدر الاعظم . الا ان « بونسونبي » سفير انكلترا بالاستانة علم بمخبرات فرنسا السرية وأبلغ حكومته هذا الخبر العظيم الاهمية . فهاج (بالمرستون) لذلك واغتاض كثيرا وصمم على الانتقام من فرنسا فدرس الدسائس ضد (محمد علي باشا) في الشام وأقام أهلها ضده وعمل على عقد اتفاق بين انكلترا والروسيا والنمسا والبروسيا أى بين كل دول أوروبا ماعدا فرنسا . وبالفعل عقد هذا الاتفاق وأمضى مندوبو الدول

الأربع في لوندرة بتاريخ ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ على اتفاقية
مختصة بالمشكلة المصرية

وهذه الاتفاقية تضمنت ان (محمد علي باشا) يرد الى
الدولة جزيرة كريد وبيت المقدس وأطنه وبلاد الشام الشمالية
وان يحفظ له ولا بنائه من بعد مصر ويتولى ولاية « عكا »
مدة حياته . . . وانه ان لم يخضع لاوامر الدول في مدة عشرة
أيام من تاريخ ارسال الانذار الدولي اليه لاترك الدول له
غير مصر وان لم يخضع في مدة عشرة أيام أخرى لاترك له
مصر نفسها وتضمنت هذه الاتفاقية غير ذلك ان الدول
تشارك في بوغازي الاستانة والدردانيل ضد كل اعتداء

وقد اتفق مندوبو الدول في هذه الاتفاقية على انها
تنفذ قبل توقيع دولهم عليها اذا اقتضى الحال ذلك
وما علم (لويس فيليب) ملك فرنسا بهذه الاتفاقية
حتى أعلن غضبه وسخطه ووافق وزيره الاول (تيرس)
على الاستعداد للحرب فخذ هذا الاخير الجنود الفرنسية
وجمع الرديف واشتغل بتحسين الحدود وساعد الجرائد على

تهيجها الشعب ضد دول أوروبا . فتهيجت فرنسا كلها منادية
بالانتقام لها ولأمير مصر من دول أوروبا

وفي ١١ سبتمبر سنة ١٨٤٠ ضرب الأميرال الانكليزي
(نايبه) ثغر بيروت وجبر (ابراهيم باشا) على اخلاء هذا
الثغر . وبعد اخلائه بثلاثة أيام أعلن الباب العالي عزل (محمد
علي باشا) من اماره مصر نفسها وكان ذلك بناء على ايعاز
(بونسونبي) سفير انكلترا بالاستانة . فأحدثت هاتان
الجادثتان في فرنسا تأثيراً شديداً وهياجاً عظيماً مما جعل عناية
الحكومة الفرنسية بتتميم استعداداتها الحربية عظيمة
شديدة وصير الحرب قاب قوسين أو أدنى

وقد استعفى بعد ذلك بقليل المسيو (تيرس) من
رئاسة الوزارة الفرنسية وعين مكانه المرشال (سولت)
وتقلد المسيو (جيزو) سفير فرنسا بانكلترا منصب وزارة
الخارجية . فبذل أقصى جهده في تعديل اتفاقية ١٥ يوليو
التي عقدت بين الدول الاربع في لوندرة ولكنه لم يفلح في
مسعاه لشدة كراهة (بالمرستون) وزير خارجية انكلترا

لفرنسا ولعزير مصر

وفي ذلك العهد جاءت الاخبار من الشام مؤيدة آمال
بالمستون فان الاسطول الانكليزي والاسطول النمساوي
استوليا على أم الموالي السورية وخرجت (عكا) نفسها من
أيدي الجنود المصرية في ٢ نوفمبر سنة ١٨٤٠ - ولم يستطع
المرحوم (محمد علي باشا) قمع الهيجان الذي أحدثته الدسائس
الانكليزية ضده في الشام . فسر بالمستون بهذه الاخبار
وأراد ان يزيد الطين بلة ويجعل الاضطراب عاما في كل انحاء
أوروبا فاقترح على الدول الاوروبية عزل (محمد علي باشا)
من امارة مصر نفسها واخراجه هو وعائلته من الديار
المصرية . فازداد لذلك الهياج في فرنسا ازديادا هائلا وحمل
المسيو (تيرس) في مجلس النواب الفرنسي على الوزارة
حملة شديدة متهما اياها بترك انكاثرا تنتقم من (محمد علي
باشا) صديق فرنسا الجيم فأجاب المسيو (جيزو) وزير
خارجية فرنسا على اعتراضات (تيرس) وغيره من الخطباء
بان فرنسا لا تقبل أبدا نزع امارة مصر من أيدي (محمد

علي باشا) وأبنائه من بعده وأنها مستعدة للدفاع عن حقوقه في مصر ولو اضطرت الى الحرب . فأدركت أوروبا من لهجة الحكومة الفرنسية ان قبول اقتراح بانرستون يكون داعية لحرب عامة وأصلا لمصائب حجة فرفضته ارضاء لفرنسا ومنعاً للحرب وعواقبها الوخيمة

ولم يخضع المرحوم (محمد علي باشا) لأوامر الدول الأوروبية الا عندما رأى ان فرنسا غير قادرة على مقاومة أوروبا كلها وان الأدميرال الانكليزي (نايبه) يهدد ثغر الاسكندرية ان بقي مستمرا على المقاومة وعدم الامتثال لأوامر الدول . فأمضى معه اتفاقية تعهد فيها بسحب الجنود المصرية من الشام وتعهد له فيها الاميرال (نايبه) بجعل امارة مصر له ولأبنائه من بعده . وما وصل خبر هذه الاتفاقية الى الاستانة حتى أشار « بونسوني » سفير انكلترا بها على الباب العالي برفضها فرفضها وصرح بأنه لا يقبل جعل امارة مصر وراثية لعائلة (محمد علي باشا) بل له وجدده مدة حياته

فلما علمت فرنسا بذلك عرضت حكومتها على مجلس النواب مشروع تحصين مدينة باريس أى تمام الاستعدادات الحربية فأقر المجلس على المشروع بارتياح تام وأيد الحكومة فى خطتها ودفاعها عن حقوق مؤسس العائلة الخديوية . فاضطربت حكومة النمسا وحكومة البروسيا عندما تحققت ان استعدادات فرنسا للحرب حقيقية وان الاعتداء على حقوق (محمد على باشا) وسلالته فى مصر يكون سببا لحرب عمومية فى أوروبا . واتفقتا على منع الحرب بكل الوسائل وتأييد « محمد علي باشا » وسلالته من بعده فى امارة مصر وجبرتا بالفعل انكاثرا والروسيا على تقديم مذكرة مشتركة معهما للباب العالى طلبت فيها الدول الاربع جعل امارة مصر لمحمد علي باشا وسلالته من بعده . وقد قدمت هذه المذكرة فى ٣١ يناير سنة ١٨٤١ وأخذت النمسا بعد تقديمها تجتهد فى استماله فرنسا للاشتراك مع بقية الدول فى أمر تسوية المسئلة المصرية . فقبلت فرنسا ذلك ولكنها اشترطت عدم التعرض لاتفاقية لوندوره التى أبرمت بالرغم عن معارضتها وتم مفعولها

وقد أقرت فرنسا مع الدول في لوندرة على اتفاقية
البوغازات التي تضمنت قفل بوغاز الدردنيل والبوسفور
لكل سفن الدول الحربية بلا استثناء

وقبل أن تمضى الدول على هذه الاتفاقية أصدر الباب
العالي - متبعا في ذلك نصيحة السفير الانكليزي
« بونسوني » خطأ شريفا أعلن فيه أن حكومة مصر تبقى
وراثية لعائلة « محمد علي باشا » ولكن الدولة تحتم انتخاب
من تشاء من أعضاء العائلة لامارة مصر عند وفاة أميرها
الحاكم والالتجند مصر أكثر من ثمانية عشر ألف
عسكري وان تؤخذ الضرائب بنفس الطريقة التي تؤخذ بها
في تركيا وأن يرسل للدولة منها الربع . فرفض عزيز مصر
هذه القيود كما رفضتها فرنسا وعاد الهياج والاضطراب في
فرنسا الى ما كانت عليه . فاهتم « مترنيخ » وزير النمسا
الاول بالامر وسعى في عزل الصدر الاعظم « رشيد باشا »
الذي كان يعمل بنصائح السفير الانكليزي فعزلته الدولة
وعينت مكانه (رفعت باشا) وأصدرت ارادة جديدة بتعيين

(محمد علي باشا) والياً على مصر وجعل اماره مصر لابنائيه
من بعده الارشد فالارشد . وبان يتفق بعد بين مصر والباب
العالي على مبلغ ترسله مصر سنوياً للدولة العلية
فقبل المرحوم (محمد علي باشا) هذه الشروط في ١٠
مايو سنة ١٨٤١ ولم يعد لانكلترا وسفيرها بالاستانة حجة
خلق المشا كل ومد أجل الشقاق وبذلك أمضت الدول
كلها في لوندري بتاريخ ١٣ يوليو من السنة نفسها على اتفاقيتين
الاولى معلنة قفل باب المسئلة المصرية (حين ذاك) والثانية
متعلقة بقفل بوغازى الدردنيل والبوسفور أمام سفن الدول
الحرية

وبذلك انتهت هذه الازمة المشؤمة

*
* *

لا ريب ان المرحوم (محمد علي باشا) كان يعمل لتوسيع
نطاق ملكه وكان مولعاً بأن يتولى اماره مصر والشام لتم
له الكلمة في الشرق وفي البحر الابيض المتوسط . وكأنه
رأى مارآه قبله نابليون من ان صاحب مصر لا يهنأ له عيش

ولا تكمل له سعادة بغير الشام وكذلك صاحب الشام لا تؤيد
امارته ولا تقوى سلطته الا باستلامه زمام أمور مصر فطمح
لذلك مؤسس العائلة الخديوية لجعل الشام تحت حكمه وانتهز
فرصة رفض والى (عكا) قبول طلبه بارجاع المصريين
المهاجرين من مصر الى وطنهم لفتح الشام وتحقيق أمانيه .
ومما سهل له ذلك علمه بارتباك أحوال الدولة عندئذ واشتغال
المرحوم السلطان (محمود الثانى) بتنظيم جيش جديد

وقد ذهب بعض المؤرخين الى ان (محمد على باشا)
كان يؤمل القبض على زمام الخلافة الاسلامية والسلطنة
العثمانية والجلوس على أريكة ملك آل عثمان . ولكنى لست
ممن يرون هذا رأى بل ولا ممن يظنوننه ظناً . فان (محمد
على باشا) الذى وهبه الله من الذكاء النادر والفكر الحاد
والنظر الصائب والبصيرة الصادقة ما جعله فى نظر الكثيرين
فوق « نابليون » رأياً وعملاً أبعد من أن يؤمل مثل هذا
الامل المستحيل وان ذلك الذى سخرت له الرجال وذلت
أمامه صعاب الاعمال كان يعلم أكثر من كل انسان ان زوال

المملكة العثمانية أمر لا يكون الا اذا زال هذا الوجود وان
دولة روسيا القوية العظيمة لم تستطع بلوغ هذه الغاية
فكيف به وما كان الا أمير مصر ؟

كلا . اني لست ممن يرون بأن مؤسس العائلة الخديوية
الكريمة كان يؤمل أو يحلم ان يقبض على زمام الدولة العثمانية
ولكنه كان يريد أن يحكم الشام مع مصر . وهاهي رسالته
الى (لويس فيليب) ملك فرنسا مدونة في المستندات الرسمية
والتاريخية تثبت ان غاية أمانيه كانت الاستيلاء على الشام .
ولو كان يعلم عزيز مصر بالتأج السيئة والعواقب الوخيمة
التي تنشأ عن دخوله الشام ووقوع الخلاف بينه وبين الدولة
العلية لكان ولا محالة عدل عن أمنيته وعمله . ولا جرم أن
(محمد علي باشا) تندم طويلا على هذا الخلاف المشؤم وتحسر
على ما فرط منه

وقد يذهب الانسان عند ما يقب صحناء تاريخ هذه
الازمة المشؤمة الى ان هنالك أسراراً لم يكشفها لنا التاريخ
دفعت بعزيز مصر ضد الدولة العلية . فان المرحوم (محمد علي

باشا) كان يعلم علم اليقين ان انكاثرا هي أول عدوة له ولمصر
وانها لذلك تعاكسه بكل مافي وسعها . وكان لا يغيب عنه
ان الروسية لا يروق لها استيلاؤه على الشام وتأسيس دولة
اسلامية جديدة يكون لها من القوة والحول ماتستطيع معه
الدولة العلية يوماً من الايام ان تقهر الروسية وتردها عن
ديارها .

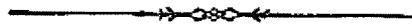
وعلى أى حال فهذه الازمة المشئومة يجب أن تكون
درسا أبديا للعثمانيين والمصريين بل ولسائر المسلمين . فان
هذا الخلاف القديم كان سببا لمصائب جمة تساقطت على مصر
وعلى الدولة العلية . وفي أغلب الملمات التي نزلت بالدولة أو
بمصر يرى الانسان أثراً من آثار ذلك الشقاق المنحوس
وقد يعمل بعض المفسدين على احياء الضغائن في صدور
رجال الدولة العلية بايها مهم ان مصر طامحة الآن وفي كل
آن الى ما طمخ اليه مؤسس العائلة الخديوية . وهي دسيسة
لا يقصد بها الا الاضرار بمصالح الدولة وبمصالح مصر
فاذا كان الخلاف القديم قد جر على الدولة وعلى مصر

المصائب والبلايا فواجب على بني الدولة وبني مصر أن يعتبروا به وان يجعلوا الوفاق والاتفاق رائداهم في كل أعمالهم . فمصر من الدولة روحها ومن الخلافة قوادها ولا حياة لهذا الجسم العظيم الا بالاتفاق بين أعضائه في العمل واذا كانت دول أوروبا تتحد وتتفق مع قوتها وعظمتها عند ما يهجم المسيحية أمر فكيف لا تتحد معاشر المسلمين وبلادنا واقعة في أشد البلاء والاضطراب محذقة بها من كل جانب وأعداؤها يكيدون لها أعظم كيد كلما سنحت لهم الفرص .

لاسلامة للدولة العلية ولمصر الا بالوفاق والاتحاد وقد أدرك هذه الحقيقة المصريون عن بكرة أبيهم مقتدين بالعباس أميرهم المحبوب فتقربوا من الدولة العلية وجأهروا بمحبتها في السراء والضراء واعترف العالم كله بأن أهل مصر أصدق المخلصين للدولة العلية وللعرش الشاهاني اذ ثبت ذلك بأجلى بيان في الحرب الاخيرة . ولا ريب عندي ان أمة مصر العزيزة ثابتة في أميالها لا تتحول أبد الدهر عن اخلاصها

للدولة العلية حماها الله

وأنه ليجب على كل مصرى صادق وعلى كل عثماني
يخلص الحب لبلاده ان يحبط أعمال الذين يثون الدسائس
بين مصر والدولة العلية ويلقون بذور الشقاق بين جلالة
الخليفة الاعظم وسمو الخديوى الانغم فان أولئك العاملين
على خلق الشحناء والبغضاء بين المتبوع والتابع لاشد خصوم
الدولة وألد أعدائها



كتاب

من (محمد علي) أمير مصر

الى

(لويس فيليب) ملك فرنسا

نأتى هنا على ترجمة كتاب أرسله عزيز مصر الى ملك فرنسا
بشأن حوادث الشام ومسئلة الخلاف بينه وبين الدولة العلية.
وكنا قد نشرناه فى جريدة المؤيد الغراء عقب خطبة القيناها
بالاسكندرية وأشرنا فيها اليه .

ومن هذا الكتاب يعرف القارىء حقيقة أفكار
المرحوم (محمد علي باشا) وأمياله وقت الازمة السالفة الذكر
القاهرة فى ١٦ رمضان سنة ١٢٥٦ هجرية (نوفمبر
سنة ١٨٤٠) أيها الملك العظيم

انى أشعر بالحاجة لاظهار شكرى لجلالتكم . ذلك
الشكر الذى يجيش فى صدرى

فلقد ألت نحوى حكومة جلالة الملك من أمد بعيد
أنظار رعايتها واليوم تتوج جلالتم ماآثرها على باعلانها
للدول ان وجودى السياسى ضرورى للموازنة الاوروية
وان هذه العواطف الجديدة من شأنها أن تحدد لي
واجبات أعرف القيام بها . وأول هذه الواجبات هو أن
أوضح لملك فرنسا بكل صراحة أسباب سلوكى الحالى
واحداً بعد آخر

لقد كانت فى سائر الازمان سعادة الدولة العثمانية أصدق
أمنية أتمناها من صميم قؤادى حيث أنا أود أن أراها دائماً
سعيدة قوية آمنة . وكانت قصارى آمالى ومرامى انظارى
موجهة نحو مساعدتها على أعدائها أولاً والمحافظة على كل
ماملكته يدي بعد المجاهدات العظيمة فى سبيل الدفاع
عنها ثانياً

أما الذى حيينى نحو فرنسا - وأقول ذلك بكل صراحة -
وحملنى على اتباع نصائحها دائماً فهو ما تبينته من انها أكثر
الحكومات رغبة فى خير الدولة العثمانية بلا خديعة ولا

مواربة ولا شائبة قصد سيء . وكذلك أرجو ان تعتقد
جلالتكم ان حبي لبلادي هو الذي كان دائما الدافع لي
والقائد لزماني

وعلى ذلك استطعت بعد المجاهدات العظيمة والاحوال
المتناقضة تأييد الامن في الشام فخل فيها اليوم السلام محل
الفوضى والاضطراب . واذا كنت قد أظهرت عظيم رغبتى
في بقاء هذه البلاد تحت حكومتى فذلك لاني معتقد بأنها اذا
نزعت من يدي عادت اليها المصائب التي استأصلت جراثيمها
منها . ومن جهة أخرى أرى ان الشام تصير اذا بقيت في
يدي عنصر قوة أستطيع به وقتئذ مساعدة مولاي السلطان
ودولتي العلية مساعدة فعلية حقيقية ولكنها لما كانت في يد
الدولة العلية — وذلك ما أتجاسر على القول به — كان
الاضطراب والفوضى والحروب الاهلية مستحكمة فيها .
وها قد تحققت اليوم شيئا مما كنت أخافه . فلقد ساعد النفوذ
الاجنبي عناصر الشقاق والاضطراب حيث لم يكن يفلح
أول الامر مسمى الذين كانوا يهيجون الامة . ولكن مساعي

أولئك الذين كانوا يظنون أنهم يخدمون استقلال تركيا
بأحداثهم الاضطراب في احدى ولاياتها نجحت هذه المرة
لا في اثاره خواطر البلاد فقط بل وفي اقامة الامة ضد
بعضها فثارت بذلك الحروب الاهلية

وان دواعي المصلحة العمومية التي كانت ترغبني في
المحافظة على الشام وجعلها تحت حكومتي زالت اليوم بالمرّة
ولم تبق هنالك الا مصالحى الخصوصية ومصالح عائلتي واني
مستعد لحياطة هذه المصالح بكل مايصل اليه جهدي في سبيل
سلامة العالم . فترك اذن الامر للحكمة العالية واضع بين
يدي ملك فرنسا حظي فهو الذي يسوى كما تقتضيه رغبته
الخلاف الحالي

واذا وافق ما عرض على جلالتيكم فاني أرضى من الشام
بعك لانها البلد التي قاومت بكل الوسائل مساعي التهييج
التي عملت لاثارتها ضدي . وقد يجوز ان جلالتيكم ترى من
العدل ان تترك لي جزيرة (قنديه) التي صارت تحت سلطة
حكومتي حسنة زاهية من عهد بعيد . ولكن اذا أرشدتكم

حكمة جلالكم العالية الى ان زمن التساهل والتنازل قد فات
وان المحافظة الشديدة واجبة فاني مستعد للكفاح الى آخر
لحظة من حياتي أنا وسائر أولادي . وان جيشي في الشام
لا يزال عظيما ودمشق وحلب وكل المدائن المهمة لا تزال تحت
سلطتي وجيشي الذي في الحجاز هاهو عائد نحو مصر وقد
وصل قسم منه الى القاهرة ويصل القسم الآخر قريبا . وبين
يدي شيوخ ذوو نفوذ هم نازعون الان الى جبل لبنان
متعهدين بأن يخضعوا لسلطتي الدروز والمارونيين . ولدي
أربعون باخرة مستعدة للسفر لاول اشارة من جلالكم
وعليه فأؤمل ان أسباب مساعي لا تبقى مجهولة بعد
اليوم حتى لا يظن انسان ما أن الخوف صار قائدي الآن فان
حياتي كلها براهين داحضة لمثل هذه الدعوى . ولو كان
الخوف يقودني لجاز أن أرى ضعيفا واهنا ولكنت تنازلت
منذ ١٥ يوما حيث كان وجودي مهدداً بالخطر . ولكن
اليوم وقد أنقذ وجودي السياسي باعلان فرانسافاني لا أخطر
بشيء كبير ان طالت الحرب

كلا ، وليست القوة التي يعدونها ضدي هي التي ترهبنى
بل ان الذى يرهبنى هو ان أكون سبباً لحرب عمومية وأن
أجر فرنسا التي أنا مدين لها كثيرا الى حرب لا يكون لها
داع غير فوائدى ومصالحى الشخصية

ولهذا فانى أعرض حقيقة الامر على أنظار جلالتكم
واعترافى لكم بالجميل يجعل ذلك فرضا وواجبا على . فضلا عن
انى معجب وواثق بملك فرنسا ذلك الاعجاب وهذه الثقة
اللتين تحمل العالم كله عليهما حكمة جلالتكم وذاؤكم العالى .
واننى بهما أضع حظى بين يديكم

ومهما كان قرار الملك فانى أقبله بشكر وامتنان مادامت
جلالتكم مشتركة فى المعاهدة التي سيتفق عليها بين الدول
العظيمة والتي تقرر حظى ومستقبلى

وأخيراً مهما وقع ومهما كان الامر فانى أرجو الملك
أن يسمح لي بأن أقول له « ان اعترافى بالجميل نحوه ونحو
فرنسا سيبقى فى قلبى الى الابد وانى أتزكركم اربنا لابنائى وأبناء
أبنائى من بعدى كواجب مقدس »

ولقد كنت أود أن أكلف أحد ضباطي العظام المعول
عليهم بحمل هذا الكتاب إلى أعتاب جلالتيكم. ولكن
الصعوبة وطول القورتيته حملتني على تكليف الكونت
« والوسكي » بتوصيله إلى جلالتيكم اهـ

(محمد علي)



الازمة الثالثة

حرب القرم

تبين للقارىء من الفصل السابق ان انكثرا حلت محل
الروسيا فى النفوذ لدى الباب العالى وصارت وحدها
المسموعة الكلمة فى الازمة الاخيرة عند رجال الدولة وانها
توصلت الى ابطال معاهدة (خونكار اسكلهسى) التى خولت
للروسيا حق ارسال جيوشها الى قلب الدولة العلية عند الحاجة
فاستاءت روسيا لذلك وعقدت النية على الانتقام من الدولة
العلية التى أحلت انكثرا محلها وقد كان المرحوم السلطان
الغازى (عبد المجيد خان) عاملا على اصلاح أحوال الدولة
وتنظيم ادارتها فأصدر فرمان الكاخانة الشهير الذى اشتمل
على اصلاحات عديدة كانت تكفى لتقويم أحوال الدولة
وتقويتها فى ظرف قليل من السنين . فساء ذلك القيصر
(نيقولا الاول) لان سياسته كانت تقتضى تهقر الدولة على
الدوام وعدم تمكنها من اصلاح شؤونها وتقويم المعوج فى

أحوالها . ولذلك أوعز الى المسيحيين الارثوذكس في الدولة بمعارضة « التنظيمات » والعمل على ايقاف تنفيذها . وبالرغم مما بذله الارثوذكس من معارضة التنظيمات الجديدة فان الحكومة العثمانية التي كان على رأسها وقتئذ (رشيد باشا) ابتدأت في تنفيذها واستبشر كل العثمانيين بقرب فلاحها تمام الفلاح ونيل ثمارها . الا ان ذلك كان من شأنه ازدياد حقد القيصر (نيقولا الاول) على الدولة العلية . فأمر باجراء التجهيزات الحربية اللازمة واستعد لمحاربة الدولة مؤملاً اضعافها وايقافها في طريق الاصلاح

ولايجاد المشاكل بين روسيا والدولة العلية أوعز القيصر (نيقولا الاول) الى القس « دانيلو » الذي كان حاكماً على الجبل الاسود وتابعا للدولة العلية بان يرفع راية العصيان في وجه الدولة ودعاه قبل ذلك للسفر الى سان بطرسبورغ فسافر اليها وقوبل فيها باحتفاء عظيم وأهداه القيصر المال والنياشين وحرضه ضد الدولة بكل أنواع التحريضات حتى عاد الى الجبل الاسود ونادى أهله باسم

بالصليب والدين الارثوذكسى للقيام فى وجهه الدولة فلبوا
تداءه وثاروا أجمعين

فلما علمت الحكومة العثمانية بذلك سيرت جيشاً عظيماً
بقيادة عمر باشا (وهو قائد عثمانى جليل اشتهر بقهر بلاد
البوسنة) لقمع ثورة أهل الجبل الاسود . فسار الجيش
ووقعت بينه وبين الثوار مواقع دموية فى جبال هذه البلاد
حتى قهر الثوار وتم له الظفر والنصر . وقد كان لهذه الحادثة
تأثير شديد فى أوروبا فاهتمت كل الدول بالامر وعلى
الخصوص النمسا فانه كان يهيمها عدم اضطراب الاحوال فى
البلقان ولكنها كانت مدينة للروسيا بمساعدتها فى عام ١٨٤٩
فى قمع الثورة المجرية فاضطرت للتظاهر بمساعدة أهل الجبل
الاسود لدى الباب العالى وكان غرضها الحقيقى توطيد
السكينة والسلام فى البلقان واحباط مساعى روسيا . فسألت
الباب العالى فى آخر عام ١٨٥٢ ان يعتدل فى انتقامه من
أهالى الجبل الاسود حتى لا تجرد روسيا حجة تخلق مشاكل
جديدة

وفي هذه السنة تمسها حدث خلاف عظيم بين روسيا
وفرنسا بشأن الاماكن المقدسة في الشام وذلك ان لفرنسا
بمقتضى معاهدات قديمة وحقوق ثابتة حماية معنوية على
الكاثوليكين في الشرق . وقد توصلت بهذه الحماية الى جعل
مفاتيح كنائس (أورشليم) بأيدي الكاثوليكين . فأرادت
الروسيا أن ترفع كلمة الدين الارثوذكسى بتسليم مفاتيح
الكنائس بأورشليم الى القسس الارثوذكس ليزداد نفوذها
في الشرق مما يخالف مصلحة فرنسا في الشرق وشرفها كل
المخالفة فلذلك احتجت الحكومة الفرنسية على رغبة
الروسيا وطلبت من الباب العالي ان يفصل في هذا الخلاف
بمقتضى الحقوق والمعاهدات فعين الباب العالي لجنة للتحقيق .
وبعد بحث طويل أقرت اللجنة على ان للكاثوليكين وخدمهم
الحق في امتلاك الكنائس بأورشليم . وبناء على هذا القرار
أصدر الباب العالي فرمانا بذلك بتاريخ ٩ فبراير سنة ١٨٥٢
فاستاءت الروسيا من هذا فرمان غاية الاستياء وألحت على
الحكومة العثمانية بابطاله مدعية ان معاهدتى « قينارجة »

و « ادرنه » تخولان لها هذا الحق ولكن الباب العالي أبقى
خريمان ٩ فبراير بالرغم عن الحاح الروسيا ومعارضتها
وفي آخر عام ١٨٥٢ تعيين لويس نابليون (نابليون
الثالث) امبراطورا على فرنسا فعمل علي رفع شأن بلاده في
الشرق وسر لهذا الخلاف الناشئ بين دولته وبين الروسيا
ليدافع فيه عن مصالح الكاثوليكية ويستميل بذلك رجال
الدين اليه

وقد خافت النمسا وقتئذ ان يتسع الخرق علي الراتق
وتشتعل نيران الاضطرابات في البلقان ونيران الحرب بين
الروسيا والدولة العلية فبذلت جهودها في تسوية مسألة الجبل
الاسود وأرسلت في يناير عام ١٨٥٣ الى الاستانة الكونت
دى (لينجن) يرجو الباب العالي باسم النمسا توطيد السكينة
في هذه الجهات المضطربة والعفو عن ثوار الجبل الاسود
ومكافأة المسيحيين الذين لم يثوروا ولحقهم الضرر في هذه
الاضطرابات فأجاب الباب العالي رجاء النمسا وتأيدت
السكينة والطمأنينة في الربوع المضطربة .

أما ما يختص بمسئلة الاماكن المقدسة فقد أرادت فرنسا ان تتساهل مع الروسيا خصوصا وانها بلغت مرامها واكتسب (نابليون الثالث) ميل الكاثوليكين اليه فسألت الباب العالي ان يمنح القسوس الارثوذكس بعض امتيازات في كنائس اورشليم وخابرت الحكومة الروسية في أمر عقد لجنة بسان بطرسبورغ من مندوبي الحكومتين للنظر في مسئلة الاماكن المقدسة فقبلت الروسيا وكان يخيّل وقتئذ للعالم كله ان الخلاف بين الروسيا وفرنسا أوشك أن ينتهي بسلام

* * *

غير ان القيصر « نيقولا الاول » أمر في الوقت نفسه البرنس منشيكوف بالسفر الى الاستانة ليخلق سببا لاعلان الحرب على الدولة العلية . وكانت مأموريته ظاهرها انه مكلف بتسوية مسئلة الجبل الاسود والاماكن المقدسة مع الباب العالي . وقد سافر (منشيكوف) من سان بطرسبورغ في ١٠ فبراير سنة ١٨٥٣ مصحوبا بضباط عديدين خلافا للعادة الجارية عند سفر أجد السياسيين الى احدى العواصم لمخاطبة

حكومتها في أمر . وجمعت الروسية على نهر (بروث) جيشا
مكونا من خمسين ألف عسكري وبدأت جليا لكل أوروبا رغبة
الروسيا في الحرب بل عزمها على اعلانها

وكان يظن القيصر « نيقولا الاول » ان البروسيا والنمسا
تساعدانه ضد الدولة العلية وان انكلترا لا تعارضه في شيء وكان
لا يخاف مساعدة فرنسا لتركيا ولا يظن ان انكلترا وفرنسا
تتحدث مع تركيا ضده . وكان سفيره بلوندره يمثل له
الحكومة الانكليزية مياله للسلم والرأي العام الانكليزي
مضادا للحرب والملائق بين انكلترا وفرنسا غير متينة لا
يخشى معها من عقد اتفاق بين هاتين الدولتين . كل ذلك
حمل القيصر (نيقولا الاول) على الاستعداد للحرب وعدم
البالاة بنتائجها

وقد سعى القيصر طويلا في الاتفاق مع انكلترا على
تقسيم الدولة العلية بين دولته وبينها فتحدث في هذا الصدد
كثيراً مع السير (هاميلتون سيمور) سفير انكلترا
بسان بطرسبورغ ولكنه لم يفلح لان انكلترا كانت تعلم ان بقية

الدول الأوروبية لا ترضى بأمر خطير كهذا وإن تقسيم الدولة العلية ليس بالأمر السهل وعلى فرض وقوعه فإنه يجر أكبر المصائب على العالمين فضلا عن أن هذا التقسيم لا يفيد في الحقيقة غير روسيا

وفي ٢٨ فبراير سنة ١٨٥٣ وصل البرنس (منشيكوف) إلى الاستانة بين رجاله وضباطه وفي أبهة أراد بها التأثير على أفكار رجال الباب العالي . وصار في كل أفعاله يعمل على خلق سبب لإعلان روسيا الحرب على الدولة العلية فطلب أولا عزل (فؤاد باشا) ناظر الخارجية العثمانية الذي كان عدواً لروسيا لتسهيل له المخبرات . ثم عرض على الباب العالي مشروع عقد تحالف دائم بين روسيا والدولة العلية تعترف فيه الدولة بحماية القيصر على الكنيسة اليونانية . فاندعش رجال الدولة من هذا المشروع الغريب وأدركوا أن روسيا تريد إعلان الحرب لأنها تعلم جيدا أنه يستحيل على الدولة قبول هذا المشروع فإن لرؤساء الكنيسة اليونانية سلطة دنيوية على نحو الخمسة عشر مليونا من المسيحيين وما

حماية روسيا على الكنيسة اليونانية الا حمايه حقيقية على هؤلاء المسيحيين .

وقد ابلغت الدولة العلية سراً وكلاء الدول الاوروبية طلب روسيا هذا ووصل عندئذ للاستانة سفيراً فرنسا وانكلترا بها وكلفا من قبل حكومتيهما بالعمل بالاتفاق . وبما ان البرنس (منشيكوف) كان لا يزال مجاهر بان مأموريته تنحصر في حل مسئلتى الجبل الاسود والاماكن المقدسة اتفق السفيران على تعجيل حل هاتين المسئلتين حتى يضطر « منشيكوف » الى مبارحة الاستانة واعلان انتهاء مأموريته أو التصريح بنوايا القيصر الحقيقية . وسبق اننا ذكرنا ان مسألة الجبل الاسود انتهت بتوسط النمسا لدى الباب العالي . أما مسألة الاماكن المقدسة فقد رضيت فرنسا بتسويتها بما فيه ترضية للقيصر وتمت هذه التسوية في ٤ مايو سنة ١٨٥٣ ولم يبق هنالك سبب ظاهرى لبقاء « منشيكوف » بالاستانة . الا ان القيصر بقى على نيته الاولى وكان لا يزال يظن ان انكلترا لا تساعد الدولة ضده فقدم « منشيكوف » في ٥ مايو

سنة ١٨٥٣ للباب العالي انذاراً شديداً العبارة طلب فيه أن يجيبه في ظرف خمسة أيام على طلبه بشأن عقد اتفاقية بين الدولتين يضمن فيها الباب العالي للكنيسة اليونانية حريتها الدينية وامتيازاتها الدنيوية ويجعل للروسيا عليها حماية حقيقية وأعلن « منشيكوف » الباب العالي في انذاره بأنه ان لم يقبل مطالب روسيا قامت الحرب بين الدولتين . فأجاب الباب العالي بان الكنيسة اليونانية متمتعة بتام حريتها وبأنه مستعد مع ذلك لان يؤكد امام العالم كله لساائر رعاياه المسيحيين ضمانته لحريتهم الدينية وبأنه يرفض رفضاً باتاً جعل الكنيسة اليونانية تحت حماية روسيا مبيناً للبرنس (منشيكوف) أنه لا يستطيع قبول هذا الطلب بدون تعريض استقلال الدولة للخطر ووضع ادارتها الداخلية تحت مراقبة أجنبية (أى تحت مراقبة روسيا)

وفي ذلك الحين عين (رشيد باشا) صدراً أعظم ووزيراً لخارجية الدولة وكان معروفاً بكرأهته الشديدة للروسيا فتظاهر (منشيكوف) ببعض اعتدال في خطته وسأل الباب

العالى ان يرسل رسالة للحكومة الروسية يصرح لها فيها
بقبول مطالبها وبذلك لا تطلب منه روسيا عقد اتفاقية بهذه
المطالب . فأجاب (رشيد باشا) على هذا السؤال الجديد
بالرفض وكان ذلك في ٢٠ مايو سنة ١٨٥٣ . فانقطعت المحادثات
وعاد (منشيكوف) الى سان بطرسبورغ . وفي ٣١ مايو من
السنة نفسها أرسل (نسلرود) وزير روسيا الاول انذاراً
جديداً للباب العالى بمعنى انذار «منشيكوف» وأعلن فيه
بان روسيا تحتل مقاطعتى الافلاق والبغدان اذا رفض
الباب العالى قبول مطالبها . وقد كان ورفض الباب العالى
رفضاً جديداً قبول هذه المطالب فأرسل (نسلرود) في ١١
يونيو سنة ١٨٥٣ الى وكلاء روسيا لدى الدول الاجنبية
منشوراً يبين لهم فيه الاسباب التى حملت روسيا على الشروع
فى احتلال الافلاق والبغدان أى على اعلانها الحرب على
الدولة العلية

*
* *

ما انتشر خبر تهديد روسيا للدولة باحتلال مقاطعتى

الافلاق والبغدان حتى هاج الرأي العام في انكلترا وفرنسا
واندهش ساسة الحكومتين من جراءة الروسيا الغربية
واقدامها على هذا العمل الخطير النتائج . فاتفقتا على مساعدة
الدولة العلية ضدها وأرسلتا اسطوليهما الى فرضة « بزیکا »
أى الى مدخل الدردانيل ليسهل لهما ان تساعدا الحكومة
العثمانية مساعدة فعلية عند ميسس الحاجة

واظهارا لما جبلت عليه العائلة السلطانية المعظمة من محبة
رعاياها على اختلاف دياناتهم ومذاهبهم وحسن رعايتها لهم
على السواء أصدر الباب العالى خطا شريفاً بتاريخ ٦ يونيو
سنة ١٨٥٣ منح فيه سائر المسيحيين فى الدولة العلية الحرية
الدينية التامة أى أكد لهم استمرار الحكومة العثمانية على
احترام هذه الحرية التى تمتعوا بها دائماً وأسلافهم من قبل .
وعرضت فرنسا من جهة أخرى على الدول الاوروبية مشروع
عقد مؤتمر لازالة الخلاف بين الروسيا والدولة العلية .
فبرهنت بذلك الدولة العلية ونصيرتها الاولى فرنسا على
اعتدالها وميلها للسلم وتركتا مسئولية الحرب وسفك الدماء

على الحكومة الروسية التي بقيت على عنادها ولم ترجع عن
قصدتها

وعند ما علم القيصر (نيقولا الاول) بارسال الاساطيل
الفرنساوية والانكليزية الى الدردانيل غضب غاية الغضب
وزاد غضبه رفض الباب العالي للانذار الذي أرسله اليه المسيو
(دى نسلرود) وزير روسيا الاول فأصدر الى الشعب الروسى
بتاريخ ٢٥ يونيو من السنة نفسها منشورا بين له فيه انه أشهر
على تركيا حربا يجب عليه اعتبارها حرباً صليبية وجهاداً فى
سبيل الارثوذكسية . وبعث كذلك (دى نسلرود) بمذكرة
الى الدول الأوروبية أظهر لها فيها ان الدولة العلية وانكلترا
وفرنسا جبرت روسيا على الحرب بأعمالها العدائية ضدها .
كأن وزير القيصر أراد أن يغالط أوروبا بهذه المذكرة أو
كانه نسي ان دولته هددت تركيا باحتلال مقاطعتى الافلاق
والبغدان وان فرنسا وانكلترا ما أرسلتا بأسطوليهما الى مياه
الدردانيل الا عند توقع اشتعال نيران الحرب

وقد هاجمت الجيوش الروسية فى ٤ يوليو سنة ١٨٥٣

مقاطعتي الافلاق والبغدان واحتلتها بعد أيام قليلة فاستولى بذلك القلق على أفكار سواس الدول الأوروبية وعلى الخصوص دولة النمسا التي كان موقفها حرجا للغاية فانها كانت لا ترضى معارضة روسيا لما لهذه الدولة عليها من الايادي البيضاء في قمع الثورة المجرية عام ١٨٤٩ ولانها الدولة الوحيدة التي تستطيع مساعدتها ضد الثورات فضلا عن ان روسيا كان في قدرتها أن تهيج العنصر السلافي في بلاد النمسا ضد الحكومة النمساوية . وكان من جهة أخرى اعتداء روسيا على الدولة العلية مخالفا لمصلحة النمسا كل المخالفة وكان سواسها يعلمون علم اليقين انها لو ساعدت روسيا استطاعت فرنسا وانكلترا ان تهيج ضدها ايطاليا والمجر وبولونيا . فلذلك بقيت النمسا حائرة في أمرها مضطربة في سياستها وغاية ما أقر عليه سواسها انهم سألوا الباب العالي الا يجعل جوابه على احتلال روسيا لمقاطعتي الافلاق والبغدان اعلان الحرب عليها بل مجرد احتجاج على هذا الاحتلال حتى يسهل للنمسا مخابرة الدول في حل المسئلة حلا سلميا . فقبل الباب العالي سؤال النمسا

وبرهن بذلك للعالم كله على عظيم اعتداله وسلامة أمياله مما شجع النمسا على دعوة الدول لعقد مؤتمر بفيينا . وقد أجابت الدول دعوة النمسا واجتمع مندوبوها بفيينا في ٢٤ يوليو سنة ١٨٥٣ ولم تقبل روسيا الاشتراك في هذا المؤتمر بل اكتفت بأن وعدت الدول بقبول ما تقرره فيه ان وافق مصالحها .

وقد أقر هذا المؤتمر على قرار مبهم العبارة والمعنى كان يسهل لسواس روسيا أن يفسروه حسب أهوائهم وأغراضهم فرفضته الدولة العلية منعاً للمشاكل . فلما رأيت فرنسا وانكلترا ان الاتفاق مستحيل وان روسيا عاملة على منعه وايقاد نيران الحرب أمرتا أسطوليهما بعبور الدردانيل والوقوف أمام الاستانة . وكان ذلك بناء على طلب الباب العالي ورغبته . وفي آخر سبتمبر سنة ١٨٥٣

وفي هذه الاثناء تقابل القيصر (نيقولا الاول) في مدينة (اولوتز) مع الامبراطور (فرنسوا جوزيف) امبراطور النمسا وطلب منه الاتحاد معه ضد تركيا وفرنسا

وانكادرا فاعتذر امبراطور النمسا عن قبول هذا الطلب مظهرا
للقيصر أسفه من عدم امكانه مساعدته . فلما لم يجد من
امبراطور النمسا اقبالا على مساعدته طلب من ملك بروسيا
مقابلته وقابله وعرض عليه كذلك الاتحاد معه ولكن نتيجة
مساءه عند ملك بروسيا كانت كنتيجة مسعاه عند امبراطور
النمسا

أما الدولة العلية فقد اهتمت باتمام تجهيزاتها الحربية ولم تغفل
شيئا من لوازم الحرب . وكان الرأى العام العثمانى متهيجا جدا
ضد الروسيا والمسلمون فى حالة قلق وهياج عظيمين خصوصا
وان منشور القيصر لشعبه أبان لهم ان الحرب دينية صليبية
فاجتمعوا مئات وألوف امام سراى السلطان وطلبوا بأعلى
أصواتهم اعلان الحرب فلبت الدولة طابهم وبعد جلسة عقدت
من وزراء الدولة وكبرائها تحت رئاسة المرحوم السلطان
الغازى (عبد الحميد خان) وأعلنت الدولة الحرب على الروسيا
بتاريخ ٤ اكتوبر سنة ١٨٥٣ . وفى ٨ منه أنذر (عمر باشا)
قائد الجيوش العثمانية البرنس (غورتشاكوف) قائد الجيوش

الروسية بانجلاء العساكر الروسية من مقاطعة الافلاق
والبغدان وحدد له خمسة عشر يوماً أجلاً للجلاء تبتدىء
الحرب بعدها اذا لم ينفذ البرنس (غورتشاكوف) طلب
(عمر باشا)

وقد كان القيصر « نيقولا الاول » مؤملاً قهر تركيا
ليس فقط بقوة جيوشه الجرارة بل بفضل الاضطرابات
والثورات التي كان يعمل عماله وصنائه لاحداثها في الدولة
العلية . فان جملة من ميهيجى اليونان قاموا في مقاطعة تساليا
وايرا اللتين كانتا تحت حكم الدولة بتحريض الاهالى على
العصيان في وجه الحكومة العثمانية . وساعدت الحكومة
اليونانية وقتئذ هؤلاء الميهيجين وسمحت لعدد عديد من
ضباطها وجنودها بالسفر سراً الى تساليا وايرا لنشر لواء
الثورة بالفعل . وكان القيصر يحرض من جهة أخرى شاه
العجم على محاربة الدولة العلية

ولما كان أمل القيصر وظيفدا في نجاح ثوار اليونان
والوصول الى احداث الاضطرابات في الدولة من كل جانب

أظهر لدول أوروبا ميلا للسلم ورغبته في تسوية المسئلة تسوية سلمية . وكان قصده بذلك اغفال الدولة العلية عن اتمام تجهيزاتها الحربية واضعافها بالاضطرابات والثورات . وقد اغترت النمسا بتصريحات القيصر وحسبتها صادرة عن اخلاص جمعت سفراء الدول بفيينا ثانية في مؤتمر . وقررت معهم في ٥ ديسمبر سنة ١٨٥٣ أمرين الأول المحافظة على استقلال الدولة العلية والثاني استقلال الحكومة العثمانية تمام الاستقلال في ادارتها وأعمالها الداخلية . وأرسلت النمسا مع هذا القرار مذكرة للباب العالي سألته فيها أن يخبر الدول في أقرب وقت على أى شروط يقبل المخابرة مع روسيا في أمر الصلح

ولكن جيوش الدولة كانت قد سارت تحت قيادة (عمر باشا) وهزمت الجنود الروسية هزيمة عظيمة اهتزت لها أوروبا كلها وانتهت باسترجاع الدولة لمقاطعة الافلاق الصغرى وبإبعاد الجيوش الروسية من صربيا التي كان يجتهد الروسيون في تهيجها ضد الدولة . وفي آسيا أتى الجيش العثماني

بقيادة (عبده باشا) مأتاه مثيله بقيادة (عمر باشا) حيث دخل الاراضى الروسية وهزم جنودها واحتل قلعة (سانت نيقولا) . فازعجت القيصر هذه الانتصارات الباهرة وانتقاما من تركيا أمر أسطول بالبحر الاسود أن يدمر أسطولها فقا جاءه في ميناء (سينوب) وأرسل عليه نيرانه حتى دمره بعد مجهودات عظيمة

فلما وصل خبر واقعة (سينوب) الى المرحوم السلطان (عبد الحميد خان) أرسل الى دولتى فرنسا وانكلترا يسألها ارسال أساطيلهما الى البحر الاسود لحماية الموانى العثمانية . فأجابت الحكومة الفرنسية بالطلب بدون امهال بخلاف الحكومة الانكليزية فانها تأخرت لعدم ميل (أبردين) رئيس الوزارة الانكليزية الى الحرب وأمله فى حل المسئلة حلا سلميا . غير ان رأى انعام الانكليزى كان ميالا الى الحرب متهيجا ضد روسيا وكان (بالمرستون) وزير خارجية انكلترا من أكبر أنصار الحرب فقدم استعفائه فى ١٥ ديسمبر عام ١٨٥٣ عند مارأى تأخر (أبردين) فى ارسال الاساطيل

الانكليزية الى البحر الاسود. فازداد تهيج الرأي العام الانكليزي واضطر (أبردين) الى دعوة بالمرستون لسحب استغفائه والعودة للوزارة تاركاً له قيادة السياسة الانكليزية كما يرى ويشاء فأرسل (بالمرستون) للاساطيل الانكليزية الى البحر الاسود حسب طلب الدولة العلية. وفي ٢٧ ديسمبر أرسلت فرنسا وانكلترا مذكرة مشتركة لروسيا أعلنتها فيها بوجوب سحب مرابكها وسفنها من البحر الاسود وبأن أساطيلهما داخله الى هذا البحر وبأنهما تسمحان للدولة العلية بترك مرابكها وسفنها فيه. فكان الاعلان في الحقيقة اعلاناً للحرب من فرنسا وانكلترا على روسيا. ولم ترض حكومتا الدولتين التصريح به علناً لاشتغالهما بأمر اتمام التجهيزات الحربية كل هذه الحوادث كان من شأنها ازدياد حيرة النمسا فعادت هذه الدولة مرة ثالثة الى مخابرة الدولة العلية وبقية الدول في أمر منع الحرب فطلبت من الدولة ايضاح الشروط التي تطلبها لعقد الصلح فأجابتها الدولة بان شروطها أربع : أولاً اعلان استقلال بلادها وأراضيها وضمانه دول فرنسا

وانكلترا والنمسا والبروسيا لهذا الاستقلال . ثانيا انجلاء
العساكر الروسية من مقاطعتي الافلاق والبغدان . ثالثا
تجديد الضمانات المقدمة من أوروبا للدولة في عام ١٨٤١ .
رابعا احترام أوروبا كلها وفي مقدمتها روسيا لاستقلال
الحكومة العثمانية في كل أعمالها داخلية كانت أو خارجية

فلما عرضت هذه الشروط على سفراء البروسيا والنمسا
وفرنسا بفيينا قبلوها وصدقوا عليها وكافوا حكومة النمسا
في ١٣ يناير سنة ١٨٥٤ بتبليغها للروسيا . وبقيت الدول
منتظرة جواب الروسيا على انذار فرنسا وانكلترا أولا وعلى
مذكرة الدول الاربع ثانيا الا أن القيصر (نيقولا الاول)
كان لا يزال مؤملا مساعدا البروسيا والنمسا فarsسل الى
برلين البارون (دى بودبرج) والى فيينا الكونت (أورلوف)
ليسأل الحكومتين البروسية والنمساوية ان تبقياً على الحيادة
أثناء الحرب ويعدهما القيصر مقابل ذلك بدعوتهما بعد
للاشتراك معه في حل المسئلة الشرقية . فطلبت النمسا من
الكونت (أورلوف) ألا تعبر الجنود الروسية نهر الدانوب

ووعده بالبقاء على الحيادة اذا قبلت روسيا هذا الشرط
ولكن روسيا وجدت قبوله يضر بها ضررا عظيما في الحرب
فرفضته وحملت بذلك النمسا على أن ترفض طلبها البقاء على
الحيادة وان تحفظ لنفسها حرية تامة في العمل

وقد رفضت البروسيا أيضا طلب روسيا بالرغم عن
قراية القيصر (نيقولا الاول) لملكها وتحقق القيصر عندئذ
أنه لا نصير له بين دول أوروبا وانه سيحارب تركيا وحده
فرفض مذكرة الدول الاربع التي أرسلت اليه في ١٣ يناير
سنة ١٨٥٤ وأجاب على كتاب ودي أرسله اليه (نابليون
الثالث) أمبراطور فرنسا نصحه فيه بقبول مطالب الدول
بان شرف روسيا يحتم عليها الحرب . وبقى بذلك على عناده
الاول غير حاسب لتتائج الحرب حسابا

فلما علمت الحكومة الفرنسية والحكومة الانكليزية
بنوايا القيصر أرسلتا الى حكومته بتاريخ ٢٧ فبراير سنة ١٨٥٤
انذارا هددتاها فيه بوجود اخلاء مقاطعتي الافلاق والبغدان
والا أعلنتا عليها الحرب واجتهدت فرنسا وانكلترا بعد ذلك

في ضم النمسا والبروسيا اليهما ضد روسيا . غير ان ملك بروسيا رفض الاشتراك في الحرب ضد روسيا وأبلغ حكومات فرنسا وانكلترا والنمسا بأنه مستعد للاتفاق معها على بعض قواعد سياسية تكون فيما بعد أساساً لتسوية الخلاف بين روسيا وتركيا . فقبلت الدول الثلاث ذلك واجتمع مندوبو البروسيا والنمسا وانكلترا وفرنسا في فيينا مرة رابعة وأمضوا على بروتوكول (مذكورة) ٩ ابريل سنة ١٨٥٤ المشتمل على القواعد الآتية : أولاً استقلال الدولة العلية . ثانياً انجلاء العساكر الروسية من مقاطعتي الافلاق والبغدان . ثالثاً استقلال الحكومة العثمانية في أعمالها وترك الحرية التامة لها في منح رعاياها المسيحيين الامتيازات اللازمة . رابعاً الاتفاق على الضمانات اللازمة لتنظيم العلاقات السياسية للدولة العلية مما يضمن سلامة التوازن الاوروبي

وعند ما وصل انذار فرنسا وانكلترا السابق الذكر الى القيصر (نيقولا الاول) رفضه رفضاً باتاً وقبل اعلان الحرب

عليه من الدولتين . فعقدت فرنسا وانكلترا عندئذ في ١٢ مارس سنة ١٨٥٤ تحالفا مع الدولة العلية ضد روسيا اشترط فيه بادىء بدء ان فرنسا ترسل خمسين ألف جندي الى تركيا وان انكلترا ترسل خمسة وعشرين ألفا ولكن الحرب اقتضت ارسال جنود كثيرة حتى ان فرنسا وحدها فقدت في ساحة القتال فوق المائة ألف جندي واشترط في هذا التحالف ان دولتي فرنسا وانكلترا تسحبان جنودهما في مدة خمسة أسابيع بعد عقد الصلح مع روسيا . واشترط كذلك ان دولتي فرنسا وانكلترا ترسلان أساطيلهما الى البحر الاسود . وبالفعل استولت فرنسا وانكلترا على البحر الاسود وأرسلتا جيوشهما الى الدانوب . ولقمع الثورة في تساليا وبيرا أرسل جزء من هذه الجيوش الى هاتيك الجهات فقمعت الثورة في زمن يسير وعادت السكينة بعد الاضطراب

*
* *

وبعد ان اتفقت فرنسا مع انكلترا ضد روسيا اجتهدت الحكومتان في استمالة النمسا اليهما لان قوة الجيش الروسى

كانت على الدانوب وكان يسهل التغلب عليه وقهره اذا ساعدت النمسا دول تركيا وفرنسا وانكلترا غير ان النمسا كانت تأبى العمل ضد روسيا قبل اتفاقها على ذلك مع البروسيا فخبرت هذه الدولة التي كان من صالحها خدمة روسيا بدون أن يدرك ذلك أحد وطالت المخابرات بينهما وانتهت بعقد اتفاقية بين النمسا والروسيا بتاريخ ٢٠ ابريل سنة ١٨٥٤ تضمنت ان النمسا ترسل لحكومة روسيا انذارا بعدم تقدم جنودها وبانسحابها من مقاطعتي الافلاق والبيغدان وان النمسا والبروسيا تعلنان الحرب على روسيا اذا عبرت الباقان أو أعلنت استيلاءها على المقاطعتين

وقد وجهت البروسيا عنايتها بعد عقد هذه الاتفاقية الى ابطال مفعولها مع بقائها وأخرت ارسال النمسا للانذار المتفق عليه مؤملة استيلاء الجيوش الروسية في هذه الاثناء على مدينة (سيلستريا) التي كانت محاصرة لها والتي لم تستطع الاستيلاء عليها . ولم ترسل النمسا انذارها للروسيا الا في

٣ يونيو عام ١٨٥٤

ولما لم يستطع (غورتشاكوف) الاستيلاء على
(سيلستريا) رفع عنها الحصار وسحب جيوشه عائدا الى
الوراء وعندئذ اتفقت النمسا مع الباب العالي بتاريخ ١٤
يونيو سنة ١٨٥٤ على احتلالها لمقاطعتي الافلاق والبغدان
وصد هجمات الروسية عنهما ومساعدة عساكر فرنسا
وانكلترا في حركتهما الحربية الا ان البروسيا كانت عاملة
كما قدمنا على معاكسة النمسا في خطتها فأوعزت الى حكومات
الاتحاد الالمانى باشتراط جملة شروط للتصديق على الاتفاقية
التي عقدت بين الروسية والنمسا في ٢٠ ابريل فعملت هذه
الحكومات الصغيرة بايعاز البروسيا واشترطت عدة شروط
منها اشتراكها في المخابرات التي ستجرى بين الدول بشأن
السئلة الشرقية ومنها انه اذا كانت النمسا ستجبر روسيا على
اخلاء مقاطعتي الافلاق والبغدان يجب عليها كذلك ان
توقف سير انكلترا وفرنسا وتجهزها على الامضاء على هدنة .
فاضطرت النمسا لقبول هذه الشروط ورضيت فرنسا
وانكلترا بنساء على رجائها بالانسحاب جيوشهما من جهة

المقاطعتين . واتفقتا عندئذ على تجريدة (القرم) والهجوم
على مدينة (سباستول)

وقد انقذت روسيا من اخطار هائلة وخسائر جمة
بتحول الجيوش الفرنسية والانكليزية بعد التركية عن
مقاطعتي الافلاق والبغدان اتباعا لرجاء النمسا . والفضل
في ذلك للبروسيا التي أوعزت لحكومات الاتحاد الالمانى
باشتراط هذا الشرط على حكومة النمسا .

فلما تحققت البروسيا من ميل البروسيا وحكومات الاتحاد
الالمانى اليها أرسلت للنمسا بتاريخ ٢٩ يونيو عام ١٨٥٤
جوابها على انذارها مبينة انها لا تستطيع الرضاء باخلاء
المقاطعتين من جنودها الا اذا قدمت لها النمسا ضمانات كافية
وأعلنت عدم اتحادها مع فرنسا وانكلترا وتعهدت بمنعهما
من محاربة الروسيا فى الافلاق والبغدان . فرأت النمسا عندئذ
ضرورة الاتفاق مع فرنسا وانكلترا على شروط جديدة
لتسوية الخلاف بين الروسيا وتركيا تكون بمثابة انذار جديد
للروسيا . وجمعت بفيينا مندوبى فرنسا وانكلترا مع مندوبىها

لوضع هاته الشروط . فلما وصل هذا الخبر الى ملك البروسيا
أوعز الى امبراطور الروسيا باعلان اخلاء المقاطعتين من الجنود
الروسية مؤملا بذلك تعطيل أعمال مندوبى الدول الثلاث
بفينا . ولكنهم لبثوا مجتمعين بضعة أيام قرروا فيها (يوم
٨ أغسطس عام ١٨٥٤) ان العلاقات السياسية بين تركيا
والروسيا لا تعود لجرهاها الاول : أولا اذا بقيت حماية الروسيا
على مقاطعات الافلاق والبغدان وصربيا واذا لم توضع
الامتيازات التى منحها الباب العالى لهذه المقاطعات تحت
ضمانة الدول كلها . ثانيا اذا بقيت الملاحة فى الدانوب غير
حرة . ثالثا اذا لم تغير الدول معاهدة ١٣ يوليو عام ١٨٤١
رابعا اذا استمرت الروسيا مدعية ان لها حق حماية المسيحيين
كلهم أو بعضهم فى الدولة العلية واذا لم تضمن أوروبا كلها
استقلال الدولة العلية وسلامتها

وقرر مندوبو الدول بألا تحيد دولهم بعد عن هذا
القرار والا يعقد الصلح الا بقبوله

وقد أرادت النمسا ان تصدق البروسيا وحكومات

الاتحاد الجرمانى على هذا القرار ولكنها لم تقبل منه الا الشرطين الاولين ورفضت الاخرين وأعلنت النمسا انها لا تتحد معها الا اذا تعهدت بمنع الجيوش التركية والفرنساوية والانكليزية من الهجوم على المقاتلين أو محاربة الروسيا من هذه الجهة . فخارت النمسا فى أمرها لانه كان لا يمكنها قبول هذا الطاب بغير تكدير علائقها مع حكومات تركيا وفرنسا وانكلترا

وفى هذه الاثناء انتصرت الجيوش التركية والفرنساوية والانكليزية على الجيوش الروسية انتصارات باهرة فقهرتها على شواطىء نهر (ألمانيا) واستولت على مواقع مختلفة وفى ٢٥ اكتوبر عام ١٨٥٤ هزمت الجيوش المتحدة جيوش القيصر فى (بلكلاوا) وفى ٥ نوفمبر هزمتها فى (انكرمان) وكان حصار (سياستوبول) لا يزال مستمرا

وقد رأّت فرنسا وانكلترا ان النمسا تماطلهما كثيرا فى أمر الاتفاق معهما اتفقا نهائيا صريحا فافكرتا فى طريقة تحملها على الاتفاق معهما وهى دعوة حكومة (البيمونتي) الى

الاشتراك معهما في الحرب ضد روسيا . ويعلم كل مطلع على التاريخ أن النمسا كانت تبغض حكومة (البيمونتي) الإيطالية أشد البغض لعمليها على تحرير إيطاليا كلها من تحت نير النمسا . فلما علمت حكومة فيينا بأن (البيمونتي) على وشك الاتحاد مع فرنسا وانكلترا خافت من مساعدة هاتين الدولتين فيما بعد لهذه الحكومة الصغيرة وأبلغتهما أنها مستعدة للاتفاق معهما وعقدت معهما بالفعل في ٢ ديسمبر عام ١٨٥٤ اتفاقاً تضمن ان النمسا تتبع قرار ٨ أغسطس الذي أقرت عليه الدول الثلاث وانها لا تتخبر بمفردها مع روسيا وانها تدافع عن مقاطعات الافلاق والبغدان وصربيا ضد كل اعتداء وان فرنسا وانكلترا تتعهدان للنمسا بمساعدتها ماديا اذا قامت الحرب بينها وبين روسيا . وانه اذا لم يتم الصلح قبل أول يناير عام ١٨٥٥ بالشروط التي قررتها الدول الثلاث في ٨ أغسطس عام ١٨٥٤ اجتمع مندوبوها وتداولوا في الوسائل الفعالة التي توصلها الى صرامها

ويعلم القارىء مما سبق ان البروسيا كانت ميالة للروسيا

وعاملة علي انقاذها فلما علمت باتفاق النمسا مع فرنسا وانكلترا
ضد روسيا سعت في تأخير تنفيذ هذا الاتفاق لتكتسب
الروسيا زمنا تستطيع فيه تحسين أحوال جيشها وتقويته وليسهل
للبروسيا حل الاتفاق بين النمسا وفرنسا وانكلترا أو علي
الأقل اضعافه فأشارت علي الحكومة الروسية أن تعلن النمسا
يقبولها لقرار ٨ أغسطس عام ١٨٥٤ وتساؤها عقد مؤتمر بيننا
للمناقشة فيه . فسرت النمسا بذلك وحسبت الروسية صادقة
في بلاغها وطلبت من فرنسا وانكلترا ارسال مندوبين من
قبلهما لحضور المؤتمر . فرضيت الدولتان بذلك ولكنهما
طلبتا من النمسا ارسال مذكرة مشتركة لالبرنس (غورتشاكوف)
الذي كان عين سفيراً للروسيا بيننا توضح فيها الدول الثلاث
معنى قرار ٨ أغسطس السالف الذكر . فلم تجد النمسا مناصها
من القبول وحررت المذكرة وأرسلتها في ٢٨ ديسمبر عام
١٨٥٤ مفسرة لمعنى قرار ٨ أغسطس . وبعد عشرة أيام من
تاريخ ارسالها أجاب البرنس (غورتشاكوف) بمذكرة فسر
فيها قرار ٨ أغسطس تفسيراً يناقض تفسير الدول الثلاث

أى تفسير الدول الواضحة للقرار واستمرت المناقشات طويلاً
قبل عقد المؤتمر نفسه

وقد أحس مندوبو فرنسا وانكلترا أن النمسا تخدع
دولتيهما وتعمل على عدم الوفاء بتعهداتها . فأبلغوا حكومتهم
بذلك وأشاروا عليهما بعقد اتفاق بينهما وبين حكومة
« الليمونتي » انتقاماً من النمسا . وقد كانت الامراض
والحميات أضرت بالجيش الفرنسي والانكليزية ضرراً
بليغاً وشدة البرد عطلت الاعمال الحربية . فاتفقت فرنسا
وانكلترا مع « فيكتور راما نويل » ملك الليمونتي على مساعدة
حكومته لها ضد روسيا وارسل ثمانية عشر الف مقاتل .
وأضى (كافور) الشير وزير الليمونتي على هذه الاتفاقية
في ٢٦ يناير سنة ١٨٥٥ . وقد سر (كافور) بها سروراً عظيماً
لعلمه بأن اشتراك الليمونتي مع فرنسا وانكلترا في الحرب
ضد روسيا يجعل لبلاده شأنًا يسمح له بعرض المسئلة الإيطالية
على الدول وقت المناقشة في شروط الصلح بعد اتمام الحرب
ولذلك يعتبر المؤرخون اتفاقية ٢٦ يناير عام ١٨٥٥ مصدراً

لتكوين الوحدة الايطالية وأصلا لها . وما عقدت هذه
الاتفاقية حتى سافرت الى تركيا الجنود البيمونتية تحت قيادة
الجنرال (لامارمورا)

وفي هذا الوقت نفسه تقدم القائد العثماني (عمر باشا)
الى مدينة (ايباتوريا) — التي هي أيضا ثغر من ثغور
بحيث جزيرة القرم — وانتصر على الجيوش الروسية فيها
نصراً مبيناً في ١٧ فبراير عام ١٨٥٥ وانضم بعد هذا النصر
الى جيوش الدولة وجيوش فرنسا وانكلترا المحاصرة لمدينة
(سباستوبول)

ولما رأت النمسا أن فرنسا وانكلترا أساءتا الظن بها
ورضيتا بمساعدة البيمونتية اجتهدت في ارضائهما والاشترك
معهما في العمل فعرضت على البروسيا وحكومات الاتحاد
الجرماني أمر استعدادها للحرب وعزمها على ارسال جنودها
ضد روسيا فرفضت طلبها بأشنع صورة ووجهت اليها الملام
العنيف على اتباعها ارشادات فرنسا وانكلترا بدون مراعاة
مصلحة البروسيا والحكومات الجرمانية . وكان الموغر

للصدور وقتئذ ضد النمسا المسيو « دى بسمارك » الطائر
الصيت وكان عضواً بالمجلس المشترك لحكومات الاتحاد
الجرماني بفرانكفور ومسموع الكلمة عند حكومته
« البروسيا » وقد أظهر بمهارته السياسية الفاتحة لحكومة البروسيا
وحكومات الاتحاد الجرماني ان خير وسيلة لمساعدة روسيا
هي جمع العساكر البروسيانية والجرمانية على الحدود امام
الحدود الفرنسية لتخشي فرنسا شأنها ويرجع « نابليون
الثالث » عما كان عزم عليه من ارسال جيش جرار الى
النمسا مخترقا به البلاد الجرمانية المحاربة الروسية وجعلها بين
نار جيوشه من جهة مقاطعتي الافلاق والبغدان وبين نار
الجيوش المتحدة من جهة القرم. وقد أفلحت سياسة « بسمارك »
وعدل (نابليون الثالث) عن مشروعه عند ما علم بوقوف
الجنود البروسيانية والجرمانية امام حدود فرنسا

وقد خطر على بال (نابليون الثالث) عندئذ أن يسافر
بنفسه الى الشرق ويتولى القيادة العامة على جيوش تركيا
وفرنسا وانكلترا ولكن انكلترا عارضته في رغبته كما عارضه

الكثيرون من نصاحه ووزرائه

وفي ٢ مارس من السنة نفسها (١٨٥٥) توفي القيصر
(نيقولا الاول) وتولى بعده القيصر (اسكندر الثاني)
فأعلن لاوروبا رغبته في السلم وميله الى عقد الصلح مما اطمأنت
له خواطر الكثيرين من رجال السياسة وحمل فرنسا على
طلب عقد مؤتمر دولي جديد بقينا حيث قبل طلبها وعقد
للمؤتمر في ١٦ مارس

ولما عقد المؤتمر اتفق مندوبو النمسا وانكلترا وفرنسا
وتركيا والروسيا على شرطى اعلان عدم حماية روسيا للمقاطعتى
الافلاق والبغدان وحرية الملاحة في نهر الدانوب . أماما يختص
بضمانة استقلال الدولة العلية وسلامتها فقد صرح مندوبو
الروسيا بأن دولتهم تحترم استقلال تركيا ولكنها لا تقبل
الاشتراك مع الدول في أمر ضمانته وقد رفضت روسيا
كذلك الشرط الرابع وهو المتعلق بتحديد عدد سفنها في
البحر الاسود . فأوقفت بسبب ذلك جلسات المؤتمر في ٢٧
مارس عام ١٨٥٥ . ولما أعيد عقد المؤتمر رفض (غورتشاكوف)

مرة جديدة تحديد عدد سفن روسيا في البحر الاسود
وضمانتها مع الدول لاستقلال الدولة العلية وعرض على دول
أوروبا قفل بوغازى الاستانة والدردانيل كما تمهدت به الدول
في معاهدة عام ١٨٤١ واعطاء الباب العالى حق فتحهما عند
الحاجة لسفن الدول المتحالفة معه . فلم يحصل بذلك الاتفاق
بين مندوبي الدول وأوقفت جلسات المؤتمر للمرة الثانية في
٢٧ ابريل عام ١٨٥٥ . وفي أوائل يونيه أعيد عقد المؤتمر للمرة
الثالثة ولكن مندوبي الدول تضاربت آراؤهم كما حصل في
المرة الاولى والثانية ولم يجدوا سبيلا للاتفاق فأعان قفل المؤتمر
نهايا بلا نتيجة تذكر

*
* *

وقد رأّت فرنسا وانكلترا أنهما صارتا في أشد حاجة
 للاتفاق بعد خيبة المؤتمر الدولى فسافر الامبراطور (نابليون
 الثالث) الى لوندرة لزيارة الملكة (فيكتوريا) حيث قوبل
 فيها بغاية الاجلال والاكرام . وبعد زمن قليل من زيارته
 ردت له الملكة زيارته بباريس . وبعدئذ اتفقت الحكومتان

الفرنساوية والانكليزية على اصدار أوامر جديدة لقواد جيوشهما ببلاد القرم أمرتاهم فيها بأن يحملوا الحملة الاخيرة على (سباستوبول) وعينت الحكومة الفرنسية في القرم الجنرال (بيلسييه) بدل (كاروبر) على قيادة الجيش الفرنسي وأمرته بالزحف على قلاع ومعامل العدو فاستولى مجيوشه في ٧ يونيو عام ١٨٥٥ مع مساعدة جيوش الدولة العلية له على قلعة (ماملون فير) المعروفة بالقمة الخضراء . وهجم في ١٨ يونيو على حصن (ملاكوف) فصدت الجيوش الروسية عنه جيش فرنسا . فاستاءت لذلك فرنسا وانكاثرا وتركيا وجمعت قواها واتفق قواد هذه الجيوش المجتمعمة (عمر باشا) و (بيلسييه) و (سمبسون) و (لامارمورا) على عمل مشترك للاستيلاء على (سباستوبول) فهاجمت الجيوش المجتمعمة في ٨ سبتمبر عام ١٨٥٥ مدينة (سباستوبول) حيث احتل الجنرال الفرنسي (ماك ماهون) قلعة (ملاكوف) بعد موت اكثرين من جنود الدول المتحدة ومن جنود دولة روسيا . وكان ذلك اليوم مشهوداً ومن أكبر أيام الحروب

وانتهى بسقوط (سياستوبول) في أيدي الجيوش المتحدة .
وقد أحدث سقوط (سياستوبول) تأثيراً هائلاً في كل
أوروبا وانتظر العالم كله إيقاف الحرب وعقد الصلح بين
الروسيا ودول تركيا وفرنسا وانكلترا . ولكن الحرب بقيت
مستمرة واحتلت الجيوش المتحدة جملة مواقع مهمة منها مدينة
(قلمرون) ولولا اقبال الشتاء لاستمرت الحرب بلا انقطاع
وفي أثناء الحرب استولت الاساطيل الفرنسية والانكليزية
على ميناء (بتروبولوسك) واحتلت في بحر البلطيق
(بومارسند) وضربت (سفيابورج)

فلما رأت الروسية أن لا استطاعة لها على استمرار الحرب
بدلت جهدها في استمالة فرنسا لها وحل عقدة الاتفاق بين
هذه الدولة وبين انكلترا وأرسلت الى باريس جملة من عمالها
وصنائعها ليستميلوا اليها رجال السياسة الفرنسية والقابضين
على أزمة الرأي العام من النكتاب والخطباء فأظهر الامبراطور
(نابليون الثالث) استعداداً لمساعدة الروسية ولكنه وجدها
ترفض مطالب الظافرين فاضطر الى الاستمرار على خطته

الاولى نحوها ولما كان من صالح انكلترا ان تضعف نفوذ
الروسيا في بحر البلطيق اتحدت هي وفرنسا اتحاداً دفاعياً مع
حكومة السويد التي كانت ألد عدوة للروسيا وقتئذ وكانت
تطمح لاسترجاع (فنلندا)

وجرى في هذه الاثناء ان (فيكتور امانويل) ملك
البيمونتي ذهب الى باريس برفقة وزيره الشهير (كافور) فانتهز
الامبراطور (نابليون الثالث) هذه الفرصة للانتقام من النمسا
التي خدعته وخذعت انكلترا في حرب القرم فاستقبل ملك
البيمونتي ووزيره أحسن استقبال ووعدهما بالمساعدة على
تحرير ايطاليا وتكوين وحدتها فاضطرت الحكومة النمساوية
وخافت شر العاقبة وأبلغت في الحال حكومتى فرنسا وانكلترا
أنها مستعدة لان ترسل معهما انذارا للروسيا تهددها فيه
باعلان الحرب عليها اذا رفضت مطالب الدول الثلاث .
وسألت الحكومة النمساوية فرنسا وانكلترا أن تمضيا معها
على اتفاقية تضمن امام العالم استقلال الدولة العلية وسلامتها
فقبلت فرنسا وانكلترا طلب النمسا واتفقت الدول الثلاث

على صورة الانذار وأرسلته بالفعل لقيصر روسيا بتاريخ ١٦
دسمبر عام ١٨٥٥ وأعلنته بوجوب قبوله قبل تمام شهر أى
قبل ١٧ يناير عام ١٨٥٦ . وهذا الانذار يشتمل على الشروط
الآتية

أولاً جعل المقاطعات الدانوبية تحت رعاية الدول
العظمى وضمانتها ومنع الدولة العلية من ارسال
جنودها اليها بدون تصريح الدول . وتعديل
الحدود من جهة البسارايا

ثانياً تقرير حرية الملاحة في نهر الدانوب تحت ضمانات الدول

ثالثاً جعل البحر الأسود حراً . ويعمل لذلك اتفاقية

خصوصية بين روسيا والباب العالى تضمنها

الدول بعد . وقبول الدولة العلية في المجتمع الاوروبي .

وعرض كل خلاف يقع بينها وبين احدى الدول على

بقية الدول وتقرير مبدأ قفل بوغازى الاستانة

والدردانيل

رابعاً تأكيد حقوق المسيحيين في تركيا بدون الحاق

ضرر باستقلال السلطان وسيادته العالية

خامسا جواز وضع شروط جديدة اذا اقتضت مصلحة
أوروبا ذلك

فأجابت روسيا على انذار دول فرنسا وانكلترا
والنمسا في ٥ يناير عام ١٨٥٦ بقبول الشروط الاربعة الاولى
ورفض الشرط الخامس لابهامه ولكن البروسيا خافت
الاشتعال نيران حرب عمومية في كل أوروبا تقوم معها الثورات
والاضطرابات فنصحت روسيا بقبول المطالب الخمسة
والخروج من هذه الازمة الخطرة عليها وعلى مصالحها.
فاتبعت روسيا نصيحة البروسيا وأبلغت الدول رسميا في
١٦ يناير عام ١٨٥٦ قبولها لشروطها كلها

فاجتمع عندئذ المؤتمر الدولي بباريس في ٢٥ فبراير عام
١٨٥٦ وعقدت جلساته تحت رئاسة الكونت (والوسكي)
وزير خارجية فرنسا واشتركت الدولة العلية والروسيا فيه كما
اشتركت حكومة اليمونتي التي أرسلت نائبا عنها الكونت
(كافور) الشهير. وكان (عالي باشا) مندوبا عن الدولة

العلية في هذا المؤتمر

وقد اتفق مندوبو الدول في هذا المؤتمر بغير صعوبة على الشروط التي عرضتها من قبل فرنسا وانكلترا والنمسا والتي أتينا عليها ولم يختلفوا الا في قبول طلب (نابليون الثالث) بشأن ضم الافلاق والبغدان الى امارة واحدة فقررروا النظر في هذا الامر بعد انتهاء المؤتمر

ولم يمض على مؤتمر باريس عامان حتى قررت الدول في باريس نفسها بتاريخ ١٩ أغسطس سنة ١٨٥٨ جعل هاتين المقاطعتين امارة واحدة تحت ضمانه الدول

وقد أمضت الدول الأوروبية على عهدة باريس في ٣٠ مارس سنة ١٨٥٦ وأعلن قفل المؤتمر في ١٦ ابريل من السنة نفسها بعد ان تناقش أعضاؤه في جملة مسائل أهمها المسئلة الإيطالية التي عرضها على المؤتمر الكونت (كافور) ووجه أنظار الدول إليها ولكن المؤتمر لم يقرر شيئاً في هذه المسائل واكتفى بالاتفاق على بعض شروط خارجية عن عهدة باريس مختصة بالملاحة والتجارة

انتهت هذه الحرب بنتائج مختلفة نأتى عليها واحدة
بعد أخرى

تبين للقارىء ان هذه الحرب أصلها مشكلة الاماكن
المقدسة والخلاف بين الكاثوليكين والارثوذكس . وطالما
كانت تؤمل كل دولة من الدول الاستيلاء على الشام والقبض
على زمام الكنائس بيت المقدس فجاء الخلاف بين فرنسا
والروسيا بشأنها دليلا على أن هذه الاماكن المقدسة يجب
أن تبقى الى الابد فى أيدي الدولة الاسلامية العظمى لانها
الدولة الوحيدة التى تقدر أن تحفظ الموازنة بين كل الديانات
فى بيت المقدس وتعطى كل ذى حق حقه . وانه لو تركت
الاماكن المقدسة لدول أوروبا لوقع بينها وبين بعضها شقاق
عظيم وقامت حرب دموية لنزوع كل واحدة منها الى امتلاكها
ورغبة كل دولة فى سبق غيرها الى الاستيلاء عليها .

فدفا لهذا الخطر الجسيم يجب أن تبقى هذه الاماكن
فى أيدي الدولة العلية العادلة الامينة . وقد أدرك سواس
أوروبا ذلك وعلموا أن مشكلة الاماكن المقدسة هي من أهم

الاسباب التي تحتم ضرورة بقاء الدولة العلية
واذا كانت الدولة العلية قد اكتسبت من حرب القرم
هذه النتيجة المهمة فانها لم تكسب غيرها شيئاً ما فقدت
المال والرجال وأضاعت نفيس وقتها ولم تأخذ من بلاد روسيا
يلدا واحدة بل انسلخت عنها في الحقيقة (الافلاق والبغدان)
وقد خدعتها الدول بمنحها امتيازين أثبتت الحوادث بعد أنهما
لا يفيدانها شيئاً مذكورا . فقد تعهدت الدول كلها بضمانة
استقلال الدولة العلية وسلامتها وأرتنا الحوادث أن دول
أوروبا نفسها سلخت من الدولة العلية جملة بلاد باسم هذا
المبدأ نفسه مبدأ ضمانة استقلال الدولة العلية وسلامتها .
واتفقت الدول كذلك على اعتبار الدولة العلية دولة أوروبية
وقبولها في المجتمع الاوروبي . ولم تر الدولة لهذا الامتياز
فائدة ما بل كانت تبيجته جر البلايا عليها بازدياد تداخل
أوروبا في شؤونها الداخلية

وقد خرجت روسيا من هذه الحرب سليمة لم تخسر
فيها غير المال والرجال شيئاً . ومعاكسة الدول لها في البحر

الاسود لم تكن الا معاكسة وقتية كما أظهرته جليا الحوادث
بعد مؤتمر باريس

أما الدولة التي استفادت كثيرا من هذه الحرب فهي
دولة البروسيا فانها استمات اليها الروسيا بخطتها نحوها
وأوجدت عندها كراهة شديدة للنمسا التي لم تساعدتها ضد
تركيا كما ساعدتها هي في قمع الثورة المجرية عام ١٨٤٩
وأحدثت البروسيا بين النمسا وبين حكومات الاتحاد
الجرماني شقاقا كبيرا . فحمل البروسيا كل ذلك على محاربة
النمسا عام ١٨٦٦ هذه الحرب التي ساعدت الروسيا فيها
البروسيا مساعدا معنوية وانتهت باستيلاء البروسيا على
مقاطعتين من أملاك النمسا وقد تمت نتائج هذه الحرب
بهزيمة فرنسا أمام البروسيا عام ١٨٧٠ وتكوين الوحدة الالمانية
ومن أهم نتائج حرب عام ١٨٦٦ على النمسا غير فقدتها
مقاطعتين مهمتين استقلال المجر منها استقلال اداريا . وهي
أيضا نتيجة من نتائج حرب القرم
وقد استفادت كذلك من حرب القرم حكومة البيمونتي

فانها أرسلت الى مؤتمر باريس كما قدمنا الكونت (كافور)
الشهير الذي استلمت أنظار مندوبي الدول الى حالة ايطاليا
ومظالم النمسا وحمل على الحكومة النمساوية حملة شديدة
كان لها رنة ودوى في كل أصقاع العالم . ومن حسن حظ
البيمونتي ان (نابليون الثالث) كان مغرما بتحرير البلاد
النازعة للاستقلال وكان ميله لايطاليا أشد من ميله لسواها
خصوصا وان بغضه للنمسا كان عظيما بعد حرب القرم لتلاعب
هذه الدولة في سياستها وعدم وفائها في وعودها مع فرنسا
وانكلترا . ولم تمض الا سنون قلائل بعد حرب القرم حتى
نالت ايطاليا استقلالها وتكونت وحدتها . فكانت بذلك
حرب القرم سببا لسقوط مقاطعتين مهمتين من أملاك النمسا
في قبضة البروسيا وسببا لاستقلال المجر استقلال ااداريا وسببا
لخروج ايطاليا من تحت نير النمسا واستقلالها وتكوين وحدتها
وبالجملة كانت حرب القرم سببا لضعف النمسا وتقويض
أركان مملكتها

وقد اكتسبت انكلترا وفرنسا من هذه الحرب ازدياد

تقودها في الاستانة فاستعملتاه في سبيل مصالحهما . فان
الهنود كادوا يطردون الانكليز من بلادهم في ثورة سيباى
الشهيرة عام ١٨٥٦ لولا تدخل المرحوم السلطان (عبدالمجيد
خان) فانه أصدر منشورا — بناء على رجاء انكلترا —
لمسلمى الهند أمرهم فيه بالركون الى السكينة والطاعة لحكومة
جلالة الملكة (فيكتوريا) . ومعلوم أن المسلمين في الهند
أقوياء ولهم شأن عظيم وكلمة نافذة وكاهم يحترمون خليفة
الاسلام ويجلونه أعظم اجلال . فلما وصل اليهم منشور جلالته
وضعوه على رؤوسهم وعملوا بما أمرهم به . فألقوا أسلحتهم وانتهت
بذلك الثورة وتوطدت سلطة الانكليز في الهند بعد اضمحلالها
وانه ليتبادر للذهن ان انكلترا شكرت الدولة العلية على
عمل سلطانها الاعظم أو اعترفت لها بالجميل . نعم انها اعترفت لها
بالجميل ولكن بمعاداتها والاعتداء على بلادها ! فانها سلطت
في عام ١٨٥٨ — أى بعد عامين من ثورة سيباى — احدى
سفنها الحربية الضخمة على ثغر (جدة) فاستمرت تدمر فيه
نحو عشرين ساعة أسيلت فيها دماء كثيرة وخربت منازل

وبيوت عامرة . وكان ذلك عقب فتنة صغيرة قام فيها بعض المسلمين على بعض المسيحيين وأصيب فيها قنصل فرنسا وقتلت زوجته . ولم يكن لعمل انكلترا معنى ولا ضرورة لان الدولة العلية كانت قد أرسلت مندوبا عاليا من لديها لتحقيق الامر ومعاينة المعتدين

أما فرنسا فقد استعملت نفوذها في تركيا الذي ازداد بعد حرب القرم كما قدمنا لاعلاء كلمتها في الشرق فأرسلت جيشا فرنساويا الى الشام عام ١٨٦٠ بحجة مساعدة الدولة العلية على قمع الفتنة التي أحدثها الخلاف والشحناء بين المارونية والدروز مع أن جيش الدولة كان كافيا لاعادة الامن والسكينة في هذه الديار . ولم تخرج العساكر الفرنسية من الشام الا في ٥ يونيو عام ١٨٦١

هذه هي النتائج الخطيرة التي أنتجتها حرب القرم ومنها يعلم القارىء حظ كل دولة في هذه الحرب وخطة الدول نحو الدولة العلية وكنه مقاصد كل واحدة منها وحقيقة أغراضها

— ❦ الازمة الرابعة ❦ —

﴿ الحرب بين تركيا والروسيا وما قبلها وما بعدها ﴾

« من عام ١٨٧٥ الى عام ١٨٧٨ »

أبنا في ختام الفصل السابق أن نتيجة حرب القرم على النمسا كانت وخيمة حيث فقدت هذه الدولة بعدها مقاطعاتها الايطالية وأخذت البروسيا منها في حرب عام ١٨٦٦ مقاطعتين مهمتين ونالت المجر استقلالها النوعى أى ارتفعت سلطة النمسا عنها . فطمعت هذه الدولة فى أخذ شىء من أملاك الدولة العلية يعوض عليها بعض خسائرها فتقربت من المانياعدوتها اللدودة التى قهرتها وكونت وحدتها بانتصارها عليها وعلى فرنسا عوضا عن أن تستعد للأخذ بالثار منها واسترجاع المقاطعتين اللتين أخذتهما منها . وصارت كذلك النمسا تستميل روسيا اليها وتوعز لها بمحاربة تركيا

وأوضحنا كذلك أن العلائق بين روسيا والبروسيا صارت جيدة متينة وان مساعدة البروسيا للروسيا فى حرب القرم

حملت روسيا على ترك البروسيا تحارب النمسا وتقهرها وتحارب
فرنسا وتقهرها وتأخذ من كل دولة من الدولتين مقاطعتين
عظيمتين وتكون بذلك وحدتها ويصير ملكها امبراطوراً
لالمانيا بدون أن تعارضها في أعمالها بل بقيت على الحيادة
مظهرة ارتياحها لنجاح البروسيا ضد النمسا وفرنسا اللتين
عاكستاها (أى روسيا) في حرب القرم

ومن ذلك يرى القارىء ان الروسية والنمسا والمانيا
اتفقت بعد حرب عام ١٨٧٠ التي قامت بين فرنسا والبروسيا
واتفق امبراطرتها على العمل بالاتحاد فاهتمت روسيا لتغيير
الشرط المتعلق بحريتها في البحر الاسود الذي اتفقت عليه
الدول في مؤتمر باريس عام ١٨٥٦ ودعت الدول لعقد مؤتمر
للنظر فيه . فأجابت الدول دعوتها واجتمع مندوبوها في
عاصمة بلاد الانكليز في ١٣ مارس سنة ١٨٧١ واتفقوا (ولم
تشارك فرنسا مع الدول لاشتغالها بعقد الصلح مع البروسيا)
على تغيير هذا الشرط واعطاء روسيا الحرية التامة في الملاحة
بالبحر الاسود وتسيير سفنها فيه

ولما تحققت الروسية من أن ألمانيا والنمسا مستعدتان لمساعدتها وان إيطاليا دولة ناشئة لا يخشى منها وأن فرنسا ضعيفة بعد الهزيمة خافت صوتها وان ليس لها في دول أوروبا من يستطيع معارضتها غير انكلترا وانها وحدها لا تستطيع ان تضربها بشيء - فضلا عن ان الروسية كانت تعلم ان انكلترا لا تقيد تركيا شيئا لان مبادئها في كل أطوار سياستها ان تتنفع من غيرها ولا تنفع غيرها - اجتهدت (أى الروسية) في تهيج أمم البلقان وأرسلت في كل أنحاء بلاد البلقان زعماء يتنادون بالثورة ضد الدولة العلية وينشرون مبدأ اتحاد السلافيين تحت راية القيصر ويدعون أقوام البلقان كافة للمضيان باسم الدين الأرثوذكسى ضد الحكومة العثمانية الإسلامية. وكان من مصلحة النمسا أن تهيج بلاد البوسنة والهرسك ضد الدولة العلية لما كان عندها من الأمل في الاستيلاء عليها فساعدت مهنجى الروسية وأخذت تهيج كذلك أهالى هذه البلاد حتى هاج المسيحيون كافة في بلاد البوسنة والهرسك وصارت المساعدات تأتيهم جهارا من بلاد الصرب والجبل الأسود

وأرسلت لهم من النمسا الاسلحة والذخائر سرّاً . فلما علمت الدولة العلية بذلك أرسلت الى البوسنة والمهرسك جيشاً قوياً بقيادة القائد الشهير والبطل العظيم الغازي (مختار باشا) فقمع الثورة ورد كيد الثائرين ولكن دول روسيا والنمسا وألمانيا التي كانت تريد كما قدمنا استمرار الثورات والاضطرابات في الدولة توسطت بين الثائرين وبين انياب العالي وطلبت من الدولة أن تقبل مطالب الثوار بتخفيف الضرائب عنهم وبتركهم يعينون الشرطة (البوليس) من نفس أبناء البوسنة والمهرسك . فوعد المرحوم السلطان (عبدالعزيرخان) بالنظر في هذه المطالب وبمنح رعاياه على اختلاف دياناتهم ما يطلبونه من الامتيازات وما يراه موافقاً لهم وللدولة . وفي ١٢ ديسمبر عام ١٧٧٥ أصدر السلطان ارادة عالية بقبول مطالب أهالي البوسنة والمهرسك وبرهن بذلك على عدم تعصب الدولة ضد رعاياها المسلمين . ولو كانت الدول راغبة حقيقة في خير المسيحيين وغير قاضدة ضرر الدولة واضعافها لكانت اكتفت بهذه الارادة السلطانية وساعدت الدولة على تنفيذها وأمرت

الثوار الذين هاجتهم ضد الدولة بالركون الى السكينة
وبالامثال لاوامر الحكومة العثمانية . ولكنها كانت تعمل
لبث الفتن والثورات فأوعزت الى الثوار بعدم نزع السلاح
وبالاستعداد للكفاح

وفي ٣٠ يناير عام ١٨٧٦ قدمت الدول جميعها بما فيها
فرنسا وايطاليا مذكرة للباب العالي طلبت منه فيها منح
أهالي البوسنة والمهرسك تمام الحرية الدينية وتقرير مساواة
الاديان وتخفيف الضرائب وجعل الشرطة أهلية وتشكيل
لجنة من أهالي البوسنة والمهرسك مكون نصفها من مسيحيين
والنصف الآخر من مسلمين لمراقبة تنفيذ ما جاء في الارادة
العلية التي أصدرها السلطان في ١٢ ديسمبر عام ١٨٧٥

وأول من وضع هذه المذكرة هو الكونت «اندراشي»
وقد سميت باسمه . وهو مجرى أغضبت خطته نحو الدولة
العلية في هذه الحوادث الامة المجرية لشدة تعلقها بالدولة
العلية واعترافها بالجميل للعثمانيين

ولم تتأخر الدولة العلية عن قبول مطالب الدول المذكورة

في مذكرتها واجابتها عليها في ١١ فبراير من السنة نفسها
فلما رأت الروس ان الدولة العلية قُعت الثورة أولاً ولم
ترفض مطالب الثوار ثانياً ولم ترفض مطالب الدول ثالثاً
وتحقت من انه يستحيل عليها خلق سيد سياسي من المخبرات
يقيم في وجه تركيا أوروبا والرأي العام الأوروبي بذلت
جهداً ووجهت كل عنايتها لجعل الثورة عامة في بلاد البلقان
حتى تضعف الدولة وترتك أحوالها من جهة وحتى يسهل
عليها ان تشيع في أوروبا الإشاعات الكاذبة عن معاملة
الأتراك للمسيحيين وتهيج بذلك الرأي العام الأوروبي ضد
الدولة العلية وضد المسلمين . فاجتمع ثوار البوسنة والمهرسك
في (كوسيروفو) في ٢٨ فبراير أي بعد قبول الدولة لمطالب
الدول وقرروا بإعاز روسيا الاستمرار على الثورة والغضيان
وعدم الخضوع للدولة

وقد توصلت روسيا الى تهيج بلاد الصرب ضد الدولة
العلية فهاج أهلها وجاهروا بمعاداة الدولة وطلبوا من حكومتهم
مخارتها . فخارت حكومتها حكومة الجبل الأسود واتفقت

معها ضد الدولة فصارت بذلك بلاد البلقان كلها قاعة على قدم
وساق ضد الدولة . وبلغت القوضى حدها في هذه البلاد
فاعتدى المجرمون على الابرياء وصار كل واحد من الثوار
يفخر الآخرين بما نهب وسلب من المسلمين . وصار الذين
لا سلاح بأيديهم من المسلمين يدافعون به عن أنفسهم فريسة
للمجرمين من السافكين للدماء من ثوار المسيحيين

رأى المسلمون في بلاد البلقان مارأوا من الاهانة والسلب
والنهب وأسيات دماء الابرياء من الكثيرين منهم وأنصار
الباطل والضلال في أوروبا يشيعون في كل مكان أن الدولة
العليه دولة بربرية تسفك دماء المسيحيين وتهتك أعراض
نسائهم وتخرب بيوتهم وكنائسهم وغير ذلك مما يكرره
أعداء الدولة وأعداء الحقيقة في كل خلاف يقع بين المسيحيين
والمسلمين في بلاد الدولة

وقد عمل أعداء الدولة على تهيج الرأي العام الاوروبي
ضدها بكل الوسائل وحصل ان فتاة مسيحية اعتنقت الدين
الاسلامي في ضواحي سالونيك وذهبت لهذه المدينة لاثبات

اسلامها بصفة شرعية فعلم المسيحيون بالامر وتجمعوا في طريق الفتاة حتى اختطفوها عند مرورها وأخفوها في بيت أحد المسيحيين فهاج المسلمون لذلك وذهبوا الى الحاكم طالبين تخليص الفتاة ثم اجتمعوا في مسجد للمداولة في الامر وبينهم مجتمعون اذ دخل عليهم قنصلا ألمانيا وفرنسا فاعتدى عليهما بعض الحاضرين لاعتبارهم دخول القنصلين في المسجد اهانة لهم وضربوهما ضربا قسى عليهما في الحال . فانتشر خبر الحادثة في أوروبا وما انتشر حتى نادى أعداء الدولة بالويل والثبور وحملوا على الاسلام ودولته العزيزة حملات شديدة وهاجوا الرأي العام ضد الحكومة العثمانية حتى اضطرت الدول كلها لارسال سفن حربية الى ميناء سالونيك ولم يستطع الباب العالي ان يفهم أوروبا ان القنصلين اخطا في الذهاب الى المسجد بل طلبت منه الدول معاقبة المعتدين وللم يجد سبيلا لرفض طلب الدول عاقب من ثبت عليهم الاعتداء على القنصلين بالاعدام وانتهت بذلك هذه الحادثة وهي حادثة من حوادث عديدة خلقتها يد الدسائس والاغراض

تلايقاع بالدولة والاضرار بها . واني لست ممن يستبعدون
ان اسلام هذه الفتاة المسيحية كان مصطنعا وان الحادثة مدبرة
من اولها لا آخرها . فكل من طالع شيئا من أعمال أرباب
الدسائس في الدولة يعلم انهم قادرون على ايجاد حادثة كهذه
وأكبر منها

وقد عرض في هذه الاثناء ثوار البوسنة والمهرسك على
دول أوروبا انهم ينكفون عن الثورة ويعيدون السكنينة الى
بلادهم اذا أنفذت الشروط الآتية :

أولا أن تعطى الدولة العلية للمسيحيين ثلث الاراضى
التي بيد المسلمين

ثانياً أن تصاح لهم المنازل التي هدمت بسبب الثورة
وان تساعدهم بالمال وان تقدم لهم الثيران اللازمة
لحرث الارض

ثالثاً أن تعفيهم من الضرائب مدة ثلاث سنين

رابعاً ان تنجلى العساكر التركية النظامية من بلاد البوسنة
والمهرسك وان تبقى فقط في (نيكشيش)

و (ستولاز) و (فوكا) و (تريبين) و (بيوجلي)

و (مستار) وان ترسل النمسا والروسيا مندوبين

من قبليهما في هذه البلاد لمرافقة تنفيذ هذه الشروط

خامساً ترع السلاح من المسلمين

سادساً ضمانه الدول الأوروبية لتنفيذ هذه الشروط

ولما رأّت صربيا وبلغاريا والجبل الأسود ان روسيا

والنمسا والمانيا تشجع نواز البوسنة والهرسك أصغت

لارشادات المهيجين وقامت مستعدة لمحاربة تركيا والاتقاف

من الإسلام باسم الصليب . ولما أرادت روسيا أن تعجل

بالحرب وبإسقاط المصائب على تركيا دعت النمسا والمانيا

للاشتراك معها في تقديم انذار جديد للباب العالي فاجابت

النمسا والمانيا طلبها واجتمع البرنس (غورتشاكوف) عن

الروسيا والكونت (اندراشي) عن النمسا مع البرنس

(يسمارك) في برلين وتم اتقاقهم في ١١ مايو سنة ١٨٧٦ على

انذار ترسله دولهم الى الباب العالي

ولم تطلب الدول الثلاث من الباب العالي ما طلبته في

مذكرة (اندراشني) التي أرسلت في ٣٠ يناير عام ١٨٧٦ بل طلبت جل ما أراد ثوار البوسنة والهرسك فاشتملت مذكراتها على الطلبات الآتية :

أولاً ان يصلح الباب العالي المنازل التي دمرت بسبب الثورة وان يقدم كل ما يلزم للفلاحين من الثيران والآلات وان يعق أهالي البوسنة والهرسك من الضرائب مدة ثلاث سنوات

ثانياً ان يعين الباب العالي لجنة من أعيان أهالي البوسنة والهرسك المسيحيين لتوزيع المساعدات المأذنة التي يقدمها

ثالثاً ان يسحب العساكر التركية من بلاد البوسنة والهرسك والا يتركها تحتل غير عشر قلاع معينة

رابعاً ان يترك المسيحيين مسلحين لغاية اتمام الاصلاحات واعادة الامن والسكينة الى بلاد البوسنة والهرسك

خامساً ان يكون لقناصل الدول أو مندوبيها الحق في مراقبة تنفيذ هذه الطلبات . وطلبت الدول الثلاث

غير هذه الطلبات ان تمنح تركيا للثوار هدنة
شهرين وهددتها بانها ان لم تنفذ هذه الطلبات مدة
الشهرين اتخذت معها طرق القوة والقهر
وقد قبلت فرنسا وايطاليا التوقيع على هذه المذكرة أما
انكلترا فرفضت التوقيع عليها بالمرّة

ولا شك ان المطالع لهذه الشروط يقف مندهشا
مستغربا من معاملة دول أوروبا للدولة العلية واعتدائها عليها
بأشنع الصور وأقبحها ويدرك من نفسه ان هذه الشروط لو
كان يطلب تنفيذها من أحقر دول الارض لكانت رفضت
قبولها ولو أدى رفضها الى دمارها وخرابها . فموت فيه شرف
تخير من حياة تلتخ بالعار . ولذلك كان يستحيل على الدولة
العلية ان تقبل هذه الشروط ولو لحظة واحدة . فان طلب
الدول بقاء الجنود العثمانية في جهات مخصوصة وقلاع معينة
مع بقاء المسيحيين مسلحين هو تشجيع للثوار عظيم وطلب
الدول اعطاء الحكومة العثمانية للمسيحيين كل ما يحتاجون اليه
من المساعدات المادية واصلاح المنازل التي دمرت بسبب

الثورة هو طلب لا تستطيع ميزانية تركيا ان تقوم به وتهديد
الدول للدولة باتخاذ طرق القوة والقهر معها ان لم تنفذ طلباتها
هو تشجيع لكل أمم البلقان على الثورة ضد الدولة العلية
ومن سوء حظ الدولة ان أسقط عن عرش السلطنة
العثمانية في هذا الوقت المتلى بالاضطرابات والاضطراب
المرحوم السلطان (عبد العزيز خان) وأجلس مكانه السلطان
(مراد الخامس) الذي لم يحكم الا خمسة أشهر

* * *

وبديهي ان الروسية كانت ترمى الى اضعاف تركيا
بالثورات والاضطرابات والحرب مع أمم البلقان حتى اذا
ثبتت عزيمتها وقلت همها تحولت ضدها برجالها وقوتها .
وهي سياسة لا يمكن لمؤرخ عادل ان يقول انها سياسة شريفة
لان الروسية كان يجب عليها ان تحارب تركيا من بادىء
الأمر لأن تهيج ضدها البوسنة والهرسك وصربيا والجبل
الاسود وبلغاريا

فقد قام البلغاريون في وجه الدولة وجعلوا غايتهم قتل

المسلمين فاتوا من الفطائم والجزائم ما لا يستطيع وصفه قلم
وصاروا أنصار الضلال في أوروبا يكذبون على العالم كله ويدعون
ان الدولة تذبجهم هم ونساؤهم وأطفالهم مع انهم كانوا المعتدين
على الابرياء من المسلمين

وقد استعدت كذلك صربيا والجبل الاسود لمحاربة
الدولة فاتحد اميرا هاتين الامارتين ضد الدولة وحشدا الجنود
بكثره وأرسلت الروسية ضابطا من أمهر ضباطها (تشرنايف)
لقيادة الجيش الصربي ، فلما علمت الدولة العلية باستعدادات
صربيا والجبل الاسود الحربية أرسلت الى أميرهم في ٩ يونيو
عام ١٨٧٦ تسألها عن سبب هذه الاستعدادات فاجابت
الضرب بأنها تطلب من الباب العالي ان تنجلي العساكر
العثمانية من مقاطعتي البوسنة والهرسك وان تحتل العساكر
الصربية مقاطعة البوسنة وان تحتل عساكر الجبل الاسود
مقاطعة الهرسك . فرفض الباب العالي هذا الطلب الغريب
بغاية الشدة والشهامة وأرسل بجيشه الى حدود الصرب والجبل
الاسود . وفي ٣٠ يونيو أعلنت الصرب الحرب على تركيا

وفي ٢ يوليو أعلنها الجبل الأسود

ولما كانت الروسيا تعلم ان تظاهر صربيا والجبل الاسود
برغبة احتلال البوسنه والمهرسك من شأنه أن يكدر النمسا
التي تريد تقوية نفوذها في البلقان وتطمح الى الاستيلاء على
هاتين المقاطعتين سافر القيصر (اسكندر الثاني) بنفسه الى
(ريشتاد) في بوهيميا وتقابل مع (فرنسوا جوزيف)
امبراطور النمسا وتحدث معه طويلا في أمور الشرق . ويحقق
كثيرون من المؤرخين بأن القيصر وعد امبراطور النمسا
باعطائه البوسنه والمهرسك بعد انتهاء أزمة المسئلة الشرقية
فبقيت النمسا بذلك على الحيادة وقت الحرب بين الدولة
العلية وبين صربيا والجبل الاسود

وقد كان يظن سواس أوروبا وكتابها ورجال الحرب
فيها ان الدولة العلية ستقهر في هذه الحرب امام صربيا والجبل
الاسود ولكنهم علموا بعدئذ ان جنود تركيا لايزالون ليونتا
في الحرب وآسادا في معامع القتال فقد اتصروا على عشاكر
الجبل الاسود وجنود صربيا نصرا مينا بقيادة الغازي عثمان

باشا والمرحوم عبد الكريم باشا وهزموم في (زيتشار)
هزيمة اهتزت لها أوروبا ومادت لها محافلها ونواديها . ولما
شعرت صربيا بأن بلغراد عاصمة بلادها صارت نفسها في
خطر طلبت من الدول بتاريخ ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٦ ان
تتوسط بينها وبين الدولة العلية فسألت الدول الأوروبية
الدولة العلية ان تعرض عليها الشروط التي تقبل معها عقد
الصلح فأجابتها بهذه الشروط :

أولاً ان تعود الاحوال في صربيا الى ما كانت عليه

قبل عام ١٨٦٧

ثانياً ان تهدم القلاع التي بنتها صربيا بعد عام ١٨٦٧

ثالثاً ان ترد القلاع التي كانت محتلة لها تركيا من قبل اليها

رابعاً ان تدفع صربيا غرامة حرية أو أن تقبل ازدياد

الخراج السنوي الذي تدفعه لتركيا

خامساً ألا يزيد عدد الجيش الصربي عن عشرة آلاف

مقاتل

سادساً ان يسافر أمير الصرب الى الاستانة ليقدم

واجبات الخضوع والتابعة للحضرة السلطانية وليستلم فرمان
تعيينه أميراً على الصرب

فأت الدول ان هذه الشروط قاسية جداً وان قبولها
يضر بالصرب ضرراً بليغاً على ان القارىء اذا تذكر الطلبات
التي اتفقت عليها روسيا والنمسا والمانيا في برلين بشأن البوسنة
والهرسك وطلبها من الباب العالي لوجد شروط الدولة العلية
مع الصرب أخف كثيراً من طلبات الدول مع ان الدولة
غلبت الصرب وانتصرت عليها انتصاراً باهراً . فطلبت الدول
من انكلترا التي كانت تدعى مساعدة تركيا - وما كانت
تعمل في الحقيقة الا على تشجيع رجال تركيا في معارضتهم ضد
الدول مع علمها باتفاق الدول كلها ضد تركيا - ان تعرض
على الباب العالي شروطاً أخرى

وفي هذه الاثناء جلس جلالة مولانا السلطان الاعظم
والخليفة الاكبر ﴿عبد الحميد خان﴾ على أريكة المملكة
العثمانية حيث المصاعب تحيط بها من كل جانب وأعداؤها
يدسون لها الدسائس في كافة انحاءها والدول كلها متحدة.

ضدها فبذل أقصى جهده في تنظيم الامور واصلاح الاحوال
ودفع المصائب والاطار

وقد عرض الكونت (دى بيكونسفيلد) الوزير
الاول لانكلترا على الدولة العلية عقد هدنة لمدة ستة أسابيع
للمخابرة فيها في شروط الصلح وبقاء الحالة على ما هي عليه في
صربيا ومنح البوسنه والمهرسك استقلالاً ادارياً فرفضت
الدولة هذه الطلبات خصوصاً وان القيصر أوعز الى صربيا
باستئناف الحرب مرة ثانية فجمعت جنودها وجندت من لم
يجند منهم . وفي ١ اكتوبر سنة ١٨٧٦ أرسل القيصر الى
(فرنسوا جوزيف) امبراطور النمسا كتاباً سرياً سأل فيه
اتحاد النمسا مع روسيا لاحتلال بلاد البلقان كلها فرفض
امبراطور النمسا طلب القيصر خوفاً من نتائج عمل خطير
كهذا .

وفي ٥ اكتوبر طلبت انكلترا من الدولة العلية عقد
هدنة لمدة ستة أسابيع وفتح مذاكرة بين الدول وقت الهدنة
بشأن عقد الصلح فأجابت الدولة العلية بأن الهدنة يجب أن

تكون لمدة ستة أشهر حتى تستطيع جنودها أن تستريح من
أنصاب الحرب وبأن يمنع وصول الاسلحة والذخائر لثوار
البوسنه والمهرسك ولبصربيا والجبيل الاسود. وقت الهدنة
فلم تقبل الدول طلب الدولة العلية العادل وأرسلت الروسية
في ١٥ اكتوبر الجنرال (اغناطييف) للاستانة حاملا اذارا
للباب العالى يتضمن هذه الشروط ..

أولا عقد هدنة لمدة ستة أسابيع بلا شرط : ثانيا منح
البوسنه والمهرسك وبلغاريا استقلالاً ادارياً : ثالثاً ضمانه الدول
الاوروبية لحقوق هذه المقاطعات

وما وصل (اغناطييف) الى الاستانة حتى وصلته أخبار
انهزام الجيش الصربي امام الجيش العثمانى الظافر . فقد
انتصرت الجنود العثمانية انتصاراً عظيماً فى (دليجراد)
و « الكسيناتس » وباتوا على مقربة من « بلغراد » عاصمة
الصرب التى صار أمر سقوطها فى أيدي العثمانيين محققاً .
فقدم فى الحال (اغناطييف) اذاره للباب العالى وقبلت الدولة
العية عقد الهدنة فى ٢ نوفمبر عام ١٨٧٦

ولما رأيت انكلترا ان روسيا تهدد الدولة العلية على
لسان الجنرال (اغنايف) أرادت أن تظهر لتركيا مودتها
لها لتنتفع من هذه المودة عند الحاجة كما سيري القارىء
فأمرت أسطولها بالسفر الى مياه الشرق والوقوف في
(بزيكا) أى في مدخل الدردانيل . وعندئذ اتفقت الدول
على عقد مذاكرة بينها وبين بعضها في الاستانة

*
.

وقد اجتمع مندوبو الدول بالاستانة في أوائل ديسمبر
عام ١٨٧٦ وقرروا عدم اشتراك تركيا في مداولاتهم
ومناقشاتهم بل ارسال قرارهم النهائي اليها بعد اتمام المداولات
والاتفاق عليه . وهى أول مرة اجتمع مؤتمر دولى في عاصمة
بلاد لم تشترك في هذا المؤتمر ! . وفي ٢٣ ديسمبر تم اتفاق
مندوبى الدول على وضع قرار نهائى وفي ٢٤ منه أبلغ هذا
القرار الى الباب العالى . وهو يتضمن أن الدولة العلية تنازل
لببلاد الصرب والجبل الاسود عن بعض الاراضى ليتسغ
نطاق امارتهما . كأنهما الغالبتان لتركيا ! ويتضمن ان البوسنة

والهرسك تصيران مستقلتين استقلالاً ادارياً وأن يعين لهما
لمدة خمس سنوات حاكم يجب ان يكون تعيينه بموافقة الدول
وأن يكون البوليس في البوسنه والهرسك مسيحياً وأن يترك
للهايتين المقاطعتين نصف ايرادهما وان تكون لغة البوسنه
والهرسك هي اللغة الرسمية فيهما ويتضمن القرار غير ذلك
أن القسم الموجود في شمال البلقان من بلاد بلغاريا يصير
مستقلاً استقلالاً ادارياً كالبوسنه والهرسك وان تحتل الجنود
البلجيكية هذه المقاطعات السالفة الذكر لحين تنفيذ قرار
الدول وان تعين لجنة دولية لمراقبة تنفيذ هذا القرار

ولا ريب أن قرار الدول هذا كان في الحقيقة اعلاناً
التركيها بان دول أوروبا كلها متعصبة ضدها وانها متحدة في
العمل على الاضرار بها . فان الدول الاوروبية كانت تعلم علم
اليقين ان هذه المطالب ترفضها تركيا رفضاً باتاً لما فيها من
المساس بحقوقها . وكيف كانت تستطيع تركيا أن تقبلها بعد
ان أقمعت الثورة في البوسنه والهرسك وهزمت جنود
الصرب والجبل الاسود شر هزيمة ؟

وقد كانت انكلترا وحدها تتظاهر للدولة العلية بالحجة والولاء، ولكنها أضرت بها كغيرها بل أكثر من غيرها، لأن الدولة العلية اتخذت بتظاهر سواس الانكليز بالميل لها وحسبت ان بريطانيا مساعدة لها ضد روسيا وقت الحرب فلما جاءت الحرب علمت تركيا ان انكلترا كانت ترمى فقط الى تشجيعها على معارضة أوروبا مع علمها باتحاد أوروبا ضدها وكذلك خدعت انكلترا تركيا عند عقد مؤتمر برلين حيث أخذت منها قبرص كما سيرى القارىء

ولما رأى مندوبو فرنسا ان الدولة العلية عازمة على رفض مطالب المؤتمر عرضوا على بقية الاعضاء تعديل الطلبات فقبلوا ذلك وأبلغوا الباب العالى انهم يتركون مسألة تنازل الدولة العلية للصرب والجبل الاسود عن بعض الاراضى لمخبرة أخرى وانهم لا يسألون الباب العالى ان يستشير الدولة في تعيين حاكم البوسنه والهرسك الا فى الخمس سنين الاولى، وانهم عدلوا عن طلبهم بشأن تقسيم بلغاريا الى قسمين وجعل قسم منها مستقلا استقلال اداريا وانهم عدلوا عن طلبهم بشأن

جعل البوليس كله في البوسنة والهرسك مسيحياً وقبلوا ان يكون من المسيحيين ومن المسلمين وانهم قبلوا اعتبار اللغة التركية في البوسنة والهرسك رسمية كاللغة السلافية . وحددوا للباب العالي مدة ثلاثة أشهر لتنفيذ ما بقى من مطالب الدول وقد أمضى مندوبو انكارترا على هذا القرار مع بقية مندوبي الدول ولكنهم كانوا ينصحون لسواس تركياً برفض مطالب الدول

ولكى تعلم الامة العثمانية ان جلالة السلطان الاعظم لا يعرض بمصالحها للخطر وأنه يستشير في صفائر الامور وكبائرهما كبار الامة وعقلاءها جمع جلالة السلطان الاعظم مجلساً عالياً مكوناً من مائة وثمانين عضواً من كبراء الامة ورؤساء الطوائف والمذاهب وعرض عليهم مطالب الدول وسألهم رأيهم في الامر فرفضوها بالاجماع وأشاروا على جلالة السلطان برفضها فقرر جلالاته رفضها عملاً برأى كبراء الامة ورؤساء المذاهب والديانات وحفظاً لكرامة الدولة وصيانة لشرفها

وفي ٢٠ يناير عام ١٨٧٧ أعلن صفوت باشا مندوبي
الدول رسميا بان الدولة العلية رفضت مطالبهم لمساسها بمصالحها
الجهوية . فانقض بذلك المجتمع الدولي وترك مندوبو الدول
كافة الاستانة اظهارا لغضب دولهم وانقطاع العلائق السياسية
وفي ٣١ يناير من السنة نفسها كتب المسيو (غورتشا كوف)
وزير روسيا الاول الى الدول الاوروبية يسألها عن الوسائل
التي ستتخذها مع تركيا لاجبارها على قبول مطالبها ويعلمها
بان روسيا مستعدة للعمل وحدها ضد تركيا . وفي الوقت
نفسه اتفق القيصر مع (فرنسوا جوزيف) امبراطور النمسا
على بقاء النمسا على الحيادة أثناء الحرب بين الدولة العلية
والروسيا وقبل القيصر الشروط الآتية : أولا الاتدعي
احدى الدول الاوروبية ان لها وحدها حق حماية المسيحيين
في الدولة العلية وان يكون لدول أوروبا كلها القول الفصل
بين تركيا والروسيا بعد نهاية الحرب . ثانيا الا تأخذ
الروسيا شيئا ما من الاراضى الواقعة على الشاطئ الايمن لنهر
الطونة وان تحترم استقلال رومانيا والاتمس الاستانة

بسوء . ثالثا اذا أوجدت روسيا امارة سلافية جديدة يجب
ألا يكون ذلك ضد مصلحة انبلاد الغير سلافية والا تدعى
الروسيا حقوقا على بلغاريا التي يجب ألا يحكمها أمير روسي
ولا أمير نمساوي . رابعا ألا تمر الجنود الروسية من
بلاد الصرب

ولم تكثف روسيا باتفاقها مع النمسا ومساعدة ألمانيا
لها من أول الازمة كل المساعدة بل أرادت أن تتحقق من
مساعدة بقية الدول الاوروبية لها مساعدة معنوية فأرسلت
الجنرال (اغناطييف) الى عواصم أوروبا فزارها عاصمة بعد
عاصمة حتى لوندرة نفسها . وفي كل عاصمة من عواصم أوروبا
قوبل بالترحاب ووعده بعدم معارضة روسيا في شيء وفي
لوندرة اتفق مع الوزارة الانكليزية على عقد مؤتمر دولي في
لوندرة لارسال انذار أخير للباب العالي . وبالفعل اجتمع
المؤتمر وفي ٣١ مارس سنة ١٨٧٧ أرسل الانذار الدولي للباب
العالي متضمنا انه يجب على الدولة العلية أن تتم عقد الصلح
مع الجبل الاسود وان تترك له الاراضي التي يطالب بها وان

تنفذ الاصلاحات التي طلبتها منها الدول وان تجعل عساكرها في حالة السلم بان تقلل عددها العظيم الذي جمعه للحرب . وأنذرتها الدول بانها كلها مستعدة لان تتحد وتقرر الوسائل الفعالة ضدها ان لم تقبل مطالبها في أقرب وقت . وبذلك اشتركت أوروبا كلها اشتركا معنويا في معاداة روسيا لتركيا وتهيجها أمم البلقان عليها وتحملت مسئولية كل ما عملته روسيا ضد تركيا

وقد أرسلت روسيا بانفرادها انذارا آخر للباب العالي أشد لهجة من الانذار الدولي فعرض الباب العالي هذين الانذارين على مجلس المبعوثان ليرى رأيه فيهما فرفضهما في ٩ ابريل سنة ١٨٧٧ وفي ١١ ابريل أعلن الباب العالي الدول الأوروبية رفضه لهما . ومن ذلك اليوم صارت الحرب على أبواب تركيا وأخذت الدولة العلية من جهة والروسيا من جهة أخرى تتم تجهيزاتها الحربية وترسل جيوشها على الحدود

ولما رأّت الروسية انها لا تستطيع التغلب على تركيا

والفوز عليها الا اذا عبرت جيوشها بلاد رومانيا عقدت في
١٦ ابريل مع هذه الامارة - خلافا لاتفاقها مع النمسا -
اتفاقية تسمح للجنود الروسية بعبور اراضي رومانيا . وفي
٢٤ ابريل سنة ١٨٧٧ أعلنت روسيا رسميا الحرب على تركيا
مبينة في اعلانها ان غرضها بالحرب نصرة المسيحيين :

فلما علمت انكلترا بان الحرب لا بد منها سألت روسيا
عدم المساس بمصالحها في الشرق واحترام صواحبها . فأجابتها
الروسيا على ذلك . وهذه هي المساعدة التي قدمتها انكلترا
للدولة العلية !

وقد اتخذت الجنود الروسية في القرم وفي البحر الاسود
خطة دفاعية وجعلت خطتها الهجومية في جهة القوقاز
والدانوب

وسار الجيش الروسى في آسيا تحت قيادة الجنرال
(لويس مليكوف) وبعد مجهودات عظيمة وقتال عنيف
استولى في ١٩ مايو على مدينة أردهان وسار في أوائل يونيه
الى مدينة (أرضروم) . أما في أوروبا فقد اتفقت روسيا

مع رومانيا (التي أعلنت عندئذ استقلالها التام عن الدولة العلية) في ١٤ مايو عام ١٨٧٧ اتفاقا دفاعيا هجوميا وانضمت جنود رومانيا الى جنود روسيا وعبرت بلغاريا الشمالية. وفي أواسط يوليو احتلت مدينة نيكوبلي واحتل الجنرال (جوركو) مضائق البلقان الموصلة لمضيق شيبكا الشهير . وقد أحدثت هذه الاخبار تأثيرا شديدا في الاستانة وفي أوروبا كلها وازداد اهتمام الباب العالي بأحوال الجيش . الا أنه من سوء حظ الدولة وشى بعض الدخلاء بالشهم المشهور (عبد الكريم باشا) فعزلته الدولة وعزلت رديف باشا ناظر الحرية وعينت بدل عبد الكريم باشا (محمد علي باشا) وهو ضابط روسي الاصل اعتنق الاسلام ودخل في عسكرية الدولة ولما علم دولة الغازي (عثمان باشا) بانتصار الجيوش الروسية والرومانية أتى بجيشه الى مدينة (بلقنه) وحصنها أحسن تحصين

وقد هاجت الخواطر في بلاد المجر حين ذاك هيجانا شديدا لانتصار روسيا على تركيا في بعض مواقع وصار

المجريون يتظاهرون في الشوارع وفي المجتمعات ضد روسيا وينادون بحجة تركيا التي ساعدت تواريخهم عام ١٨٤٩ وأخذوا يسألون حكومتهم مساعدة تركيا بالفعل . الا ان النمسا التي بيدها زمام القيادة العامة للجيش المجري والنمساوي كانت على الحيادة وكان (بسمارك) يسمعها من وقت الى آخر ان نصيبها من أملاك تركيا سيكون (البوسنة والمهرسك) . فكانت راضية بالحرب غير حاسبة لتقوية نفوذ روسيا في بلاد البلقان حسابا

وبالجملة لم يكن لتركيا في أمم أوروبا محب يخلص الحب لها غير الامة المجرية ولكنها لم تستطع ان تعمل شيئا ما في صالحها .

وقد ظن سواس أوروبا ورجال العسكرية فيها ان روسيا ستستمر سائرة في طريق النصر ولكن الاخبار مالت أوروبا بعدئذ ان الجنود العثمانية انتصرت على الجنود الروسية انتصاراً باهراً (في قارص) بفضل البطل الشهير الغازي (أحمد مختار باشا) واضطر الروسيون لرفع الحصار عن هذه المدينة .

وفي يوليو وأغسطس وسبتمبر عام ١٨٧٧ هاجمت الجنود الروسية مدينة (بلفنه) المرة بعد الأخرى وارتدوا على أعقابهم خاسرين لما أقام حولها الغازي (عثمان باشا) من المعاقل والحصون المنيعة

ولكن سوء حظ الدولة العلية قضى عليها بالألا ترسل ما يلزم من المدد للغازي (مختار باشا) بعد ان فقد جيشه الرجال الابطال . فسقطت منه لذلك (قارص) في أيدي الروسيين في شهر نوفمبر عام ١٨٧٧ . وسار بعد ذلك الجنرال الروسي (مليكوف) على (أرضروم) . أما (بلفنه) فقد أعيت معاقلها وحصونها الروسيين فحاصروها حصاراً شديداً وشهدوا قوة الأتراك وشهامتهم وأعجب قيصر الروس نفسه بمهارة الغازي (عثمان باشا) وقوة ادراكه . وقد طالت محاصرة (بلفنه) حتى انقطع المدد عن الأتراك وتقد كل ما عندهم من الذخائر فعزم الغازي (عثمان باشا) على الخروج من (بلفنه) مع جنوده الأشداء وفي ١٠ ديسمبر عام ١٨٧٧ خرج بالفعل وصرت الجنود العثمانية من وسط الأعداء غير

خائفة نيرانهم ولا مقدوفاتهم بل جاعلة وجهتها الاستحكامات التي كان أقامها الروسيون حول (بلقنه) على ثلاثة خطوط متعاقبة واستوتت على مدافع الخط الاول والثاني وكادت تستولى على الخط الثالث غير ان الغازى (عثمان باشا) وقع جريحا فظنه قومه ميتا وانتشر خبر موته بين الجنود العثمانية فثبطت همهم وانحلت عزائمهم . ودخل الروسيون فى هذه الاثناء (بلقنه) واضطر قواد الجيش العثمانى للتسليم والاتفاق مع قواد الجيش الروسى على ايقاف الحرب بالقاء الجيش العثمانى للسلاح وقد فقد الجيش الروسى فى محاصرة (بلقنه) ٢٨٠٨٠ رجلا وفقد الجيش العثمانى ١٥٣٠٠ رجلا

ولم يعتبر رجال العسكرية فى أوروبا سقوط (بلقنه) انتصارا للروسين على العثمانيين بل أعجب كل انسان بالعثمانيين أكثر من اعجابه بالروسين فان الروسين كان عددهم مائة وخمسين الف مقاتل وكان عدد العثمانيين ثلثهم أى خمسين الفا فقط . وقد أظهر القيصر اسكندر الثانى نفسه للغازى (عثمان باشا) عظيم اعجابه بدفاعه عن (بلقنه) وقال

له ان هذا الدفاع يعد من الاعمال الحربية النادرة المثال في تاريخ البشر

وبالجملة فلم تنتصر روسيا على تركيا في هذه الحرب الا بالدسائس العديدة التي دسها ضدها في البوسنة والمهرسك وفي بلاد البلقان . فقد رأى القارىء ان الدولة العلية اضطرت الى قمع ثورة عظيمة في البوسنة والمهرسك ومحاربة الصرب والجبل الاسود و قمع ثورة بلغاريا مما أراق دماء كثيرة من دماء العثمانيين وأمات أبطالا من جنود الدولة و حملها الاموال والمصاريف الطائلة

ومع ان الثورة في البوسنة والمهرسك وبلغاريا والحرب مع صربيا والجبل الاسود أضعفت جيوش الدولة فان هذه الجيوش الفخمة حاربت روسيا بكل قوة وشهامة وانتصرت عليها في مواضع مختلفة . ولم تحارب روسيا تركيا بجيوشها وحدها بل استعانت برومانيا التي قدمت لها نحو المائة الف مقاتل . ولو كانت روسيا حاربت تركيا من بادىء الامر قبل أن تهيج البوسنة والمهرسك وبلغاريا والصرب والجبل

الاسود ضدها لكانت انتصرت تركيا ولا محالة وخابت
الروسيا وهزمت شر هزيمة

وإذا أضف القارىء الى ما تقدم أن تركيا كانت تضع
ثقتها في رجال من الدخلاء يعملون بأوامر الاجنبي ويعرضون
بمصالح الدولة للدمار وانه كان بين قواد جيشها قائد روسي
الاصل علم فضل تركيا في انتصارها على الروسية في بعض
مواقع مهمة

ولا بد لنا من ان نذكر للقارىء أيضا ان جنود الجبل
كانت تماكس جنود الدولة أثناء الحرب وان الصرب انضم
جيشها لجيش الروسية بعد سقوط (بلفنه) . فكانت الدولة
العلية بذلك مشتتة من كل جانب برد الاعداء عن ديارها
ولم يكن لها نصير ينصرها على أعدائها بل كانت وحدها امام
أعداء عديدين وكان اعتمادها على محض قوتها

*
**

طالبنا ادعى أعداء الدولة العلية انها اذا فتحت بلاداً
نشرت فيها لجنودها راية السلب والنهب والفتك بأهلها واذا

صرت بأرض خربتها وغيرت معالمها . فليقرأ النصفون ماعمله
الروسيون وصنائعهم البلغاريون في هذه الحرب مع المسلمين
الابرياء الذين لم يكن لديهم أسلحة يدافعون بها عن أنفسهم
بل كانوا آمنين مطمئنين يحسبون الحرب بشرية انسانية
لا بهيمية بربرية

وقد أتى السير اشמיד برتلت في كتابه الحديث (مواقع
تساليا) علي تاريخ كثير من هذه الفظائع . وانا نذكر للقراء
الكرام شيئا منها :

لما عبر الجنرال سكوييف نهر شيبكا في يناير سنة ١٨٧٧
وجد معسكرا يحتوي على مائة ألف من نساء الاتراك نازلا
يقرب هرمنلي فلم يكن من جنوده سوى أنهم فتكوا بهن
وطردوهن امامهم على تلوج نهر ميرتزا الى جبال رودب
حتى مات أكثرهن من البرد والجوع

وانا نستشهد علي هذه المعاملات البربرية واعتداء
الروسيين والبلغاريين علي الابرياء من المسلمين بما جاء في
جريدة الدالي نيوز وقد كانت اذ ذاك منتصرة للروسيا . ففي

عدد ٨ فبراير سنة ١٨٧٨ جاء فيها بالحرف الواحد :
ادريا نوبل في ٢٧ يناير سنة ١٨٧٨ لمكاتبنا في الحرب
« ان المسافة التي بين (فيلوپوپوليس) و (هرمنلي)
تبلغ سبعين ميلا وقد كانت بالامس مرتعا لآلاف من العائلات
واليوم أصبحت قاعا صنفصفا خاوية على عروشها ليس بها
سوى جيف الموتى وعظام القتلى وبقايا المذبوحين . فتحولت
نضارتها السابقة الى منظر مخيف وأطلال دوارس وذلك نتيجة
ماحصل من الفظائع المنكرة التي تقشعر من هولها الابدان .
ولا يمكن لاي انسان أن يتصور مهما اجتهد ان يحاول تلك
الاهوال التي وقعت في تلك البقعة والحالة التي وصلت اليها »
وكتب هذا الكاتب نفسه :

« بينما نحن نسير من (فيلوپوپوليس) كنا نرى جثث
الفلاحين مغطاة بالثلوج ولا شك ان بعضها قد لبث على هذه
الحالة الشنيعة المحزنة أسبوعين أو ثلاثة ولم تزل آثار الدماء
على ملابس بعضهم . وهكذا كنا نسير بين رمم القتلى وآثار
الخيام والارض حولنا مغطاة بالجثث وبقايا المعسكرات كما

تغطي بالبسط والفرش وكنا نحترق صفوفنا من جثث القتلى
ورمم الحيوانات مسافة لا تقل عن خمسة وثلاثين ميلا. فرأينا
نساء ملقاة في الثلوج وأولادا وأطفالا مرماة في البرك
ورجالا ممزقة أجسادهم مما أصابهم من الجراحات القتالة .
ورأينا الثلج نحمرا من أثر الدماء المنهطلة وأظن ان أغلب
النساء متن من البرد القارص لان نضارة الحياة كانت بادية
على وجوههن فكأنهن نيام للراحة من عناء هذا العالم
ومعاملة أهله البربرية باسم المدنية

اما الرجال فكنت تراهم واحدا بجانب الآخر تظهر
عليهم علام العظمة حتى مع الموت وذقونهم ملوثة بدمائهم
وأيديهم موضوعة على صدورهم كأنهم يحافظون على قلوبهم
الشريفة من أن تدوسها أعداؤهم باقدام الخيل

اما الاطفال والاولاد فهم كالنساء مات أغلبهم من
شدة البرد القارص والثلوج المترامية . فكنت ترى أوجهم
لطيفة بعضها باد وبعضها مغطى بالثلج وكانت تلوح عليهم
نضارة الطفولية وتظهر عليهم الطهارة والبراءة التامة كأنهم

تأعون نوما طبيعيا أو كأنما جعلت من الثلوج الناصعة البياض
سراثرهم وأيديهم الناعمة البيضاء بارزة من المياه الذائبة
ولا أشك ان أمهاتهم لما رأينهم أمواتا على صدورهن
من شدة البرد وان لأمل في عودتهم للحياة رمينهم في الثلوج
ليخففن حملهن وفارقن حشاشات أكبادهن بالرغم عنهن
والدموع تسيل من عيونهن حتى اذا أدركت الحدود تحولت
بردا من شدة الزمهرير

« واني لم أشعري بأس زائد وبلاء عظيم في حياتي الا عند
. مارأيت بعيني الفظائم والمصائب التي حلت على بني الانسان .
فلقد رأيت امرأة تسير بجانب طفلة تناهز العاشرة من عمرها
وهما تجدان في المسير فرارا من معاملة الروسيين وقساوتهم
البربرية ولكن الابنة لم تقو على المشي لان أقدامها العارية
تعبت غاية التعب من المسير على الثلج فسقطت ميتة بين
أيدى أمها الحنونة ولقد دام الام الليل بظلامه الحالك وبرده
القاتك فسقطت طريحة بجانب ابنتها
وان الطريق الى (هاسكيوى) مملوأة بجثث عديدة

وكلمنا مررنا على قرية رأيناها خاوية على عروشها ليس بها
الا بقايا المذبوحين والمقتولين ولقد سألتنا بعض البلغاريين :
من قتل هؤلاء ؟ فأجابونا بصوت الشامت المسرور « انا
ونصراءنا قتلناهم شرقتلة »

أما في هاسكيوى فكنت ترى كثيراً من الجنود التركية
مقتولين وفضلاً عما أصابهم من الجراح القاتلة فان فلاحى
البلغار لم يشفقوا عليهم بل رجموهم بالحجارة ليفنوا عظام هؤلاء
الشهداء الابطال

ولقد سألت احدى العائلات التركية من أين جاءت
والى أين تسير ؟ فقالت لى انها تركت (بلفنه) من خمسة
شهور مضت وهي على مثل حالها من الفقر المدقع تسير ليلاً
ونهاراً لاغذاء لديها سوى ما تجده من لحوم الحيوانات التى
تموت فى الطرق وكانت هذه العائلة مكونة من أب وأم على
صدرها طفل صغير وولد يباغ العاشرة من العمر وكلهم حفاة
عراة الارض فراشهم والسماء غطاؤهم وليس لديهم سوى
بعض خرق يسترهم بها سواآتهم وقدرة يطبخون فيها اللحم

وكما سرنا خطوة بعد (هاسكيوى) رأينا مناظر
أبشع وأفظع فكى رأينا امرأة وزوجها مقتولين نائمين بجانب
بعضهما وطفلين بقربهما على الثلوج وشيوخا متكسرة جماجمهم
وكل هذا فضلا عن خراب القرى وسلب ونهب مالا أصحابها
من الخيرات والأشياء النافعة . ومن المناظر التى تولد الحسرة
وتحزن النفؤاد أنى رأيت شيخا هرماً من الترك ملقى على
الأرض وبجانبه مصحف قرآن شريف منتوحا وملوثا بدمائه
وذلك بينما كان البلغار يولون يسلبون الناس أموالهم ويحملونها
على عرباتهم ثم يجرونها فوق جثث القتلى لتدهس العجلات
لحومهم وتفتت عظامهم وتهشم جماجمهم بلا رحمة ولا شفقة
بل وبلا تأثر لمثل تلك المناظر البشعة الفظيعة فأين المدنية
وأين حب الإنسانية ؟؟ ؟

وانى أقول ان عدد الذين فتك بهم البلغار يولون من
الأبرياء الآمنين كثير جدا وقد ترك بيوتهم نحو الخمسة
وسبعين ألفا هروبا من المعاملة القاسية البربرية ولكنهم
لا يكادون يفرون من القتل حتى ينقض عليهم البلغار يولون

ويفتكون بأغلبهم . ولم يهرب الا القليل الى بلاد الترك وانه
ليحق للعالم ان يسمى الطريق بين فيلوبيوليس وهرمنلي
(طريق الموتى) لكثرة ما فقد فيه من الارواح البريئة

ولقد رأينا في طريقنا الى قسطنطينية من أمثال هذه
المنظر الفظيعة كثيرا وكم رأينا أناسا من الضعفاء يسرون
سريعا لا يلتفتون وراءهم خوفا من أعدائهم واذا سألتهم الى
أين يسرون لم يجيبوك من شدة ضعفهم وانتهاك قواهم كأنهم
لا يعرفون الى أى طريق هم سائرون . وانما غاية ما يتصورون
انه يجب عليهم الفرار حتى يأمنوا على أرواحهم ومن شدة
فزعهم وهلعهم كانوا يتركون أمتعتهم حين تكسر لهم عربة
ويفرون وحدهم

واني بينما أكتب هذه الاسطر أرى امام عيني كثيرا
من العربات تغدو بأصحابها بين هضاب متراكمة من الثلج
وأغلب النساء يسرن حفاة عراة خائرات القوى من الضعف
والتعب

ولذلك ضوضاء يصحبها صراخ الاطفال وعويل الاولاد

وبكاء النساء وزفرفة العواصف وقرقرة عجلات العربات مما
يزيد المنظر فظاعة وبشاعة ومع الأسف الزائد ان هؤلاء
المساكين التعساء يروحون فريسة الظلم وليس من يرحمهم
أو يشفق عليهم

وقد كتب مكاتب الستندرد الذي سار مع الدوق فيقولوا
وجاب الجزء الشمالى من بحيت جزيرة البلقان مانصه

« لم أترك لنفسي مجالاً للتكلم عن كبت الفظائع كما يجب
ان نسميها وأقول الآن ان المتوحشين لا يفعلون مع الفارين
المهاريين كما فعل البلغار يون مع جيرانهم الاتراك من القساوة
البربرية والمعاملة الوحشية وما حمل هؤلاء المسيحيين على فعل
هذه المنكرات سوى حب نفوسهم الخبيثة لفتك بعباد الله
وظمئها الى شرب دماء جيرانهم الابرياء الذين لا سلاح
بأيديهم . ولقد سمع تابع لى رجلا بلغاريا فى احدى حوانيت
الخمر فى (سيستوف) يقول وهو حامل سكينه هائلة « كنت
أحمل معى بندقيه ولكن هذه السكينه اللطيفة أفادتنى اكثر
من البندقية لاني ذبحت بها عشرة منهم كما تذبح الاغنام »

ولعمري ان مثل هذا التغيير لا يضارعه مثيل في القسوة
وانفطاعة البهيمية واني لأشك أنهم قتلوا الضعفاء الابرياء
وذبحوهم كما تذبح الاغنام . ولقد مضى شهران على الروسيين
وهم مقيمون ومع ذلك لم يسمع ان تركيا أساء الى أحد
المسيحيين . ومما يحكي ان ضابطا روسيا اشترى من أحد
الفلاحين المسيحيين دينكين روميين بمبلغ نصف شان ثم سأل
الفلاح قائلا « أليس الناس في سرور لمقابلة اخوانهم المسيحيين »
فأجابه « فلتنظر حتى نرى ان كنتم تعاملوننا كما كان يعاملنا
الاتراك بالحسنى »

وقد سأل المستر ادموند قنصل انكرا في (فيلويو پوليس)
خليل أوغلي حسين ومصطفى أوغلي عبد الله وسليمان أوغلي
رشيد وهم من سكان (بالفان) التي تبعد بمسافة سير ثلاث
ساعات من ترنافو عما جرى لهم من الالهانات فأجابوا
بما يأتي

« في صباح السبت الماضي (٧ يوليو) وصل الأيان
من الكوساكنز الى قرية (بالفان) فخرج كبارها حين

سمعوا بوصول الروسيين لمقابلة قوادها و لكن الكوسا كز
حاصروا القرية و طابوا من السكان تسليم أسلحتهم وفي اليوم
الثاني حضر الأيان آخران من الكوسا كز و أحاطوا
كأخوانهم بالقرية وكان يصحبهم في هذه المرة عدد لا يقل
عن الفين أو ثلاثة آلاف من البلغاريين الذين يسكنون القرى
المجاورة و جميعهم متقلدون بالنبايت و السكاكين و البنادق
و السيوف المختلفة الاجناس فابتدأ هؤلاء الاوغاد في طرد
أهل القرية و حيواناتهم و نهب الناس و سلبهم من كل شىء
يستحق الاخذ ثم أشعلوا النار في القرية في أماكن عديدة
و كلما حاول أحد الخروج من لظى النار و لا سيما الاطفال
و النساء حملوا عليه و زجوه فيها

أما الكوسا كز فانهم وقفوا بعيدا على شكل كوردون
حول القرية غير متألمين مما يجرى امام أعينهم بل كانت علامتهم
السرور بادية على وجوههم و لولا اننا (خليل أوغلي و من
معه) هجمنا على الكوردون بقلوب شجعها اليأس و قطعناه
في طرف القرية ما تمكنا من الفرار من لهيب النار « وكان

المتكلم هو خليل أوغلي المذكور ولقد استمر في حديثه
وعلامات الحزن والاسف بادية على وجهه ولكنه حينما
أراد أن يتكلم عما حصل لعائلته بكى بكاء مرًا وصار يتهد
كما تتهد الشكلى ثم خنقته العبرة فلم يقدر على الكلام وبعد
مدة طويلة أمكنه أن يعبر لنا عما حصل لاختيه اللتين كان يعتنى
بأمرهما لأن زوجيهما كانا في الجيش وقال لنا انه رأى بعينه
عائلته وقد كانت تزيد عن احدى عشرة نسمة ترمى في النار
واحدًا بعد واحد . »

ولما عبر الروسيون نهر الدانوب سنة ١٨٧٧ قبضوا
على نساء الاتراك وأطفالهم الذين كانوا يحاولون الهروب من
وجه أعدائهم وأحضروهم الى مدينة شمالا بحالة تذيب الافئدة
وتقطع الاكيدة وهناك رأهم بعض مكاتبي الجرائد الاوربية
فكتبوا قراراً بهذا الشأن وأمضوا عليه

ولقد أرسل وزير خارجية الدولة العلية هذا القرار الى
السفارة العثمانية في باريس بتاريخ ٢١ يوليو سنة ١٨٧٧ قائلاً
(انى أرسل اليكم القرار الآتي باجماع وامضاءات

مكاتبي الجرائد الاجنبية الآتية وهي

(كولونيا غازت) (جرنال الديبا) (نيوفراى برسيه)،
(ستندارد) (دايلي تلغراف) (الستراندلندن نيوز) (مانشستر
جارديان) (التيمس) (فرانكفور ترزايتنج) (مورنن
بوست) (ريپليك فرانسز) (بسترلويد) (فاينرتاجبلاط)
(مورنن ادفر تيسر) (سكوتمان) (نيويورك هرالد)
(منشستر اكزامنر). والقرار هو الآتى :

الممضون أدناه الذين يمثلون الصحافة الاوروبية والمجتمعون
في مدينة شمالا يرون ان من واجباتهم ان يمضوا الرسائل التي
أرسلها كل واحد منهم الى جريدته عن القسوة البربرية التي
ارتكبها ويرتكبها البلغار يون ضد السكان المسلمين الا برياء وأن
يشهد كل منا اننا رأينا بأعيننا جراح النساء والشيوخ والاطفال
وسألنا في مدينتى راسجراروشملا النساء والاطفال والشيوخ
عما حل بهم من الجراحات العنيفة بالسيوف والحرايب فضلا
عن البنادق التي ربما ظن أنها أصابتهم أثناء اشتعال نار
الحرب.

ويستدل من أجوبتهم ان ما حل بهم هو من معاملة
الروسيين والبلغاريين ويستنتج من كلامهم أيضا ان معظم
سكان القرى من المسلمين ذبحوا كما تذبح الاغنام . ونحن
الممضون أدناه نقر ان أغلب الجرحى من النساء والاطفال
الامضات

وكتب مكاتب التيمس - وقد صحب هذا المكاتب
الجنرال جوركو ورأى بعينه ما حل بالأتراك الابرياء - من
معسكر جنوب البلقان في ١٢ يوليو سنة ١٨٧٧ ما يأتي

ان هذه الحرب ليست من الحروب الانسانية بل هي
هول على قهول وفظائم على فظائم لان الجندي الروسي يرى
التركي كحيوان يجتهد في صيده ليقتله وأما البلغاري فكيفما
تمكن من القتل قتل . وهذا هو البرنس ويتشتنستين يقول
ان البلغاريين يقتلون جرحى الأتراك ويسلبون القتلى أموالهم
فماذا يعمل الانسان ذو العواطف الحية حينما يرى اخوانه
يتحمسون لشرب الدماء عند ما يسمعون انه قبض على أسرى
من الأتراك ؟ أم كيف يتسنى للابطال ان ينظروا بعين الرضى

رجالاً يلوثون انتصارهم بما يركبونه من منكرات الفظائع
والمذابح ؟؟ »

*
* *

لما رأت الدولة العلية ان أوروبا كلها ضدها وأن لا نصير
لها بين الدول وان اطالة الحرب مضرّة بها طلبت من روسيا
ايقاف الحرب وعقد هدنة للمخابرة في شروط الصلح فقبلت
الروسيا ذلك بغاية الامتنان وعقدت الهدنة بين المتحاربين
في (أدرنه) بتاريخ ٣٠ يناير عام ١٨٧٨ واشترطت الروسية
عند عقد الهدنة ان القواعد الاولية للصلح يجب أن تكون
استقلال الصرب ورومانيا وتنازل الدولة العلية لهما وللجبل
الاسود عن بعض الاراضي وجعل بلغاريا مستقلة استقلالاً
ادارياً وجعل الادارة في البوسنة والمهرسك مستقلة وتقدير
غرامة حربية تدفعها تركيا للروسيا

وما انتشر خبر هذه الاتفاقية التي عقدت في أدرنه بين
المتحاربين حتى هاجت الخواطر في النمسا ضد الروسية ورات
حكومة الامبراطور (فرنسوا جوزيف) ان هذه الشروط

التي جبرت روسيا الدولة العلية على قبولها ماسة بحقوقها
وبمصلحتها في البلقان وعلى شواطئ نهر الدانوب فأعلنت
الدول الأوروبية بأنها تعتبر كل اتفاق يقع بين المتحاربين
لاغيا لا عمل له وان أوروبا كلها يجب عليها أن تجتمع في مؤتمر
للفصل بين تركيا وروسيا

أما انكلترا فقد أظهرت عندئذ ميلها للدولة العلية
وتظاهرت بالمحبة والصداقة لملك آل عثمان وأرسلت بأسطولها
الى مياه البوسفور وهددت روسيا بانزال العساكر
الانكليزية الى الاستانة. وسيرى القارىء الى أى غاية كانت
ترى انكلترا عندئذ وهل كانت صديقة في تظاهرها بالموودة
للدولة العلية أو غير صديقة

وقد أجابت الحكومة الروسية على اعلان النمسا بأن
ليس لأوروبا حق في ان تتداخل في أمور لا تمس مصالحها
مطلقا وان روسيا تعرض على الدول عقد مؤتمر أوروبي
للنظر في شروط الصالح . فوافق البرنس « بسمارك » على
جواب روسيا وعرض على الدول عقد مؤتمر ببرلين

وفي هذه الاثناء كان الجنرال « اغناطييف » يتخابر مع مندوبي تركيا في شروط الصلح وفي ٣ مارس أمضى معهم عهدة سان اسطفانوس التي هي اكبر المعاهدات ضررا بالدولة العلية . فهي تتضمن جعل بلاد الجبل الاسود مستقلة تمام الاستقلال من الدولد العلية مع توسيع نطاقها واعطائها ثغرين على البحر الادرياتيكي وتتضمن جعل بلاد رومانيا مستقلة تمام الاستقلال وجعل بلاد الصرب مستقلة مع اضافة اراضى (نيش) الى بلادها وتتضمن جعل بلاد البلغار مستقلة استقلالاً نوعياً وتعيين حاكم روسي لها ينظمها ويحكمها لمدة سنتين يكون لها بعدها الحق في انتخاب أمير عليها وتتضمن العهدة كذلك احتلال العساكر الروسية لبلاد البلغار مدة سنتين وهدم كل القلاع والحصون الموجودة على نهر الدانوب (الطونة) وجعل الملاحة في نهر الدانوب حرة . وتتضمن العهدة أيضا ان الادارة في البوسنه والمهرسك تكون موافقة لما طلبته الدول في مجتمع الاستانة وتوضع تحت مراقبة روسيا والنمسا وأن أرمينيا تمنح بعض امتيازات وبعض حقوق جديدة

وان جلاله السلطان يصدر عفوا عاماً عن الثوار والمجرمين السياسيين . وتتضمن العهدة غير ذلك ان الدولة العلية تدفع للروسيا غرامة حرية قدرها ١٤٠٠ مليوناً من الروبل . وقد رضيت الروسية بأن تنازل للدولة عن مبلغ ١١٠٠ مليوناً من الروبل مقابل تنازل الدولة لها عن باطوم وأردهان وقارص وبازيد في آسيا وعن اقليم (الدبروجه) في أوروبا . وهذا الاقليم أضيف الى مملكة رومانيا مقابل استيلاء روسيا على اقليم (بساراييا) الذي سلخ منها في عام ١٨٥٦ . وتشتمل العهدة على تعهد الدولة العلية برعاية الرعايا الروسين في بلادها ووضع حقوق القسوس الارثوذكس تحت حماية القيصر واعادة تنفيذ المعاهدات التجارية التي كانت بين روسيا وتركيا قبل الحرب وفتح بوغازى الدردانيل والبوسفور في كل وقت للسفن التجارية وما علمت الدول الاوروبية بهذه العهدة حتى اعترف سواها بان روسيا اعتدت على حقوق الدولة العلية شرعاً . وأن دول أوروبا تفقد موازنتها ويضيع بالمرّة التوازن العام اذا

أُنقذت شروط عهدة سان اسطفانوس . وكانت أشد الدول
تهيجا ضد روسيا هي النمسا التي خدعت في اتفاقيتها التي
عقدتها مع روسيا في يناير عام ١٨٧٧ فخبرت انكلترا واتفقت
معها على معارضة روسيا كل المعارضة وطلبتا منها عرض عهدة
سان اسطفانوس للمناقشة بين مندوبي الدول في المؤتمر المزمع
عنده فاجاب القيصر في ٢٦ مارس سنة ١٨٧٨ بأنه لا يرضى
بأن دول أوروبا تتناقش في الشروط التي لا تخص الا روسيا
وتركيا . وقد أمل القيصر عندئذ الاتفاق مع النمسا فأرسل
الى فيينا الجنرال (اغناطييف) ولكن الاتفاق كان مستحيلا
لتباين أميال روسيا والنمسا

وقد استفادت انكلترا من خيبة الجنرال (اغناطييف)
في مأموريته بفيينا واعتمدت على مساعدة النمسا لها ضد
روسيا وأعلن اللورد سالسبورى وزير الخارجية الانكليزية
وقتئذ أن عهدة سان اسطفانوس تجمل البحر الاسود تحت
سلطة روسيا ورحمتها وتهدد استقلال الدولة العلية وسلامتها
وتضر بمصالح انكلترا . أي أن انكلترا أرادت ان تسمع

الروسيا انها اذا صممت على تنفيذ عهدة سان اسطفانوس قامت الحرب بينهما . وكان القابض في الحقيقة على مفاتيح السلم والحرب حينئذ هو البرنس (بسمارك) لان المانيا كانت بين الدول في موقف الحكم فانها اذا كانت انضمت الى الروسية كانت اضطرت النمسا الى العدول عن محاربة الروسية وبذلك كانت فشلت انكاثرا وبلغت الروسية مرامها واذا كانت وقفت على الحياد بدون ان تساعد الروسية وتركتها امام انكاثرا والنمسا كانت خسرت الروسية اهم مكاسبها في عهدة اسطفانوس . وقد سألت الروسية المانيا مساعدتها مذكرة أياها برعايتها لها ضد النمسا في عام ١٨٦٦ ومساعدتها لها ضد فرنسا في عام ١٨٧٠ حيث منعت النمسا من مساعدة فرنسا ولكن البرنس (بسمارك) أتي مساعدة الروسية بجنود المانيا معتذرا بان المانيا في حاجة مستمرة لمراقبة فرنسا والاستعداد لمحاربتها فاغتاظ قيصر الروسية واغتاظ سواسها أشد الغيظ من المانيا ووزيرها وابتدأت العداوة الكامنة بين الدولتين من ذلك الحين في الظهور

ولما رأَت الروسية انه لا استطاعة لها على محاربة النمسا وانكلترا بعد محاربتها لتركيا طلبت من الوزارة الانكليزية أن تعرفها عن التغييرات التي تريد اجراءها في عهدة سان اسطفانوس ووجرت المخابرات في ذلك بين اللورد سالسبورى وبين الكونت « شوفالوف » سفير روسيا بلوندره . وفي ٣ مايو عام ١٨٧٨ أمضيا اتفاقية سرية تتضمن التغييرات التي طرأت على عهدة سان اسطفانوس ولم يكن لهذه التغييرات الجديدة التي أحدثتها الوزارة الانكليزية في عهدة اسطفانوس أهمية لان المؤتمر الدولي كان من شأنه أن ينظر في كل شروط الصلح وأن يقرر ما يتفق عليه فيه بالاغلبية أما فر نسا فقد كانت خطتها في المسئلة من بادىء الامر خطة الدولة الراغبة في السلام العديمة الاطماع في أخذ شىء من أملاك الدولة العلية ولما عرضت عليها الدول الاوروبية الاشتراك معها في مؤتمر يعقد للفصل النهائى بين تركيا والروسيا اشترطت على الدول . أولا اشتراك كل الدول التي أمضت على معاهدة باريس عام ١٨٥٦ في هذا المؤتمر . ثانيا

ان لا ينظر في هذا المؤتمر الا في المسائل المختصة بالحرب بين تركيا والروسيا . ثالثا أن لا يبحث أعضاء المؤتمر في شؤون مصر والشام وأن لا يناقش أحد في المؤتمر في حقوق فرنسا على الاماكن المقدسة . فقبلت الدول كلها هذه الشروط ورضيت بذلك فرنسا أن تشارك معها في المؤتمر

وقد ظهر للقارىء مما سبق ان انكلترا كانت متظاهرة بالموودة للدولة العلية وكانت تهدد روسيا بأعلى صوت ولسان ولم يكن قصدها من ذلك خدمة تركيا أو مساعدتها بل التغيرير بها وخذعها . فانها وعدتها بالمساعدة في مؤتمر برلين ضد روسيا وعرضت عليها عقد اتحاد معها تتعهد فيه انكلترا بالدفاع عن تركيا اذا مستها روسيا بسوء — ولو كانت انكلترا صادقة في مودتها لكانت تحالفت مع الدولة العلية قبل الحرب — وتأخذ منها مقابل ذلك جزيرة (قبرص) فانخذع رجال الدولة العلية لسواس بريطانيا وأحسنوا الظن بهم وعقدوا معهم هذه المعاهدة في ٤ يونيو عام ١٨٧٨ أى قبل عقد مؤتمر برلين بأيام قلائل وبذلك قدمت الدولة العلية جزيرة قبرص بدون

أن تكسبها المودة الانكليزية الكاذبة أقل فائدة

*
* *

وقد دعا البرنس بسمارك رسميا في ٣ يونيو عام ١٨٧٨ مندوبي الدول الاوروبية للاجتماع ببرلين فحضر المندوبون وعقدت الجلسة الاولى للمؤتمر في ١٣ يونيو. وكان أهم مندوبي المانيا البرنس (بسمارك) وأهم مندوبي النمسا الكونت (اندراشى) وأهم مندوبي فرنسا ماسيو (وادنجتون) وأهم مندوبي انكلترا الكونت (بيكونسفيلد) والمركيز (دى سالسبورى) وأهم مندوبي ايطاليا الكونت (كورتى) . وكان مندوبو روسيا البرنس (غورتشاكوف) والكونت (شوفالوف) والبارون (دوبريل) . أما مندوبو الدولة العلية فكانوا (قره تيودورى باشا) و (محمد على باشا) الروسى الاصل و (سعد الله بك)

وقد أرسلت حكومة اليونان مندوبين من قبلها لعرض مطالب اليونان على المؤتمر وكان مندوبو انكلترا مساعدين لهم كل المساعدة فطلبوا من المؤتمر قبولهم لسماع أقوالهم .

وكان قصد مندوبي انكلترا من هذه المساعدة معا كسة روسيا التي يسوءها تقوية العنصر اليوناني لما في ذلك من الضرر بالعنصر السلافي . وكان مندوبي انكلترا كانوا يجهلون ان مساعدتهم لليونان تضر بالدولة العلية أكثر من ضررها بالروسيا . ولكن مصالح الدولة العلية كانت لا تهمهم مطلقا بعد ان تحققت أمنيتهم بالاستيلاء على (قبرص) !

وكانت تنحصر مطالب اليونان في اظهار ضرورة استيلائها على تساليا وأييرا وألبانيا وكريت . وقد قرر المؤتمر قبول مندوبي اليونان في آخر جلسات المؤتمر وسماع مطالبهم وأول مناقشة دارت بين أعضاء المؤتمر كانت على مسألة بلغاريا واستغرقت أربع جلسات . وقد انتهت المناقشة باتفاق أعضاء المؤتمر — بالرغم من معارضة مندوبي روسيا — على جعل مساحة بلغاريا أقل بكثير مما اتفقت عليه روسيا مع الدولة العلية في سان اسطفانوس بجعل حدودها عند جبال البلقان واعطائها (صوفيا) كعاصمة لها مع بعض الاراضي في جنوب البلقان . وقرر المؤتمر بذلك جعل مساحتها ٦٤٠٠٠

كيلومتر مربعاً بعد أن كانت في اتفاقية سان اسطفانوس ١٦٣.٠٠٠ كيلومتر مربع . وصار عدد سكانها مليوناً ونصف مليون بعد ان كان في عهدة اسطفانوس أربعة ملايين . وبذلك بقيت سواحل الارخبيل في أيدي الدولة العلية خلافاً لشروط عهدة اسطفانوس . وقرر المؤتمر جعل احتلال الجنود الروسية لبلاد بلغاريا لمدة تسعة أشهر فقط لا لسنتين كما قرره عهدة اسطفانوس وجعل تنظيم بلغاريا تحت مراقبة لجنة دولية لا تحت مراقبة مندوب روسي

وقرر المؤتمر كذلك انشاء ولاية جديدة في جنوب البلقان بين مقدونيا وأترنه تكون عاصمتها مدينة (فيليوبوليس) وتسمى بالروملي الشرقي وتكون ادارتها الداخلية مستقلة وأن لا يجوز للجنود العثمانية أن تقيم في داخلها بل يكون لها الحق فقط في الدفاع عن حدودها . ولم يرض أعضاء مؤتمر براين تسمية الروملي الشرقي ببلغاريا الجنوبية ولكنهم كانوا يرمون ولا محالة الى ضم هذه الولاية الجديدة الى بلغاريا بعد زمن قليل من عام ١٨٧٨

ولما دارت المناقشة بشأن (البوسنه والهرسك) قام الكونت (اندراشى) مندوب النمسا وقرأ تقريراً طويلاً أبان فيه أن بقاء هاتين المقاطعتين تحت يد الدولة العلية أى تحت حكم المسلمين يكون سبباً لاستمرار الاضطرابات والثورات فيهما وأظهر ما فى ذلك من الضرر بمصالح الدولة النمساوية وما انتهى من كلامه حتى وقف الماركيز (سالسبورى) وأيد أقواله وسأل المؤتمر تقرير احتلال الجنود النمساوية لمقاطعتى البوسنه والهرسك احتلالاً لا أجل له . وهكذا ساعدت انكسار الدولة العلية وبرهنت لها على صدق اخلاصها ! وقد احتج مندوبو تركيا على هذا السؤال الغريب فأجابهم الرئيس بسمارك - الذي كان الموعز للكونت (اندراشى) وللماركيز (سالسبورى) بما طلبناه - بأن الرض من مؤتمر برلين ليس رعاية المصالح العثمانية بل رعاية مصالح أوروبا والمدنية ! وقد اتفق مندوبو المؤتمر بالاغلبية على جعل البوسنه والهرسك تحت حكم النمسا واعطأها حق احتلال إقليم « نوفي بازار » . وهو إقليم على طريق سالونيك

وبعد ذلك نظر المؤتمر في مسألة الصرب والجبل الأسود فأعلن استقلالها تمام الاستقلال وقرر اعطاءهما بعض الاراضى لتوسيع نطاقهما ولكن أقل مما قرره عهدة اسطفانوس. وفي ذلك الوقت قرر المؤتمر سماع مطالب اليونان فدخل المسيو « ديليانيس » والمسيو « رانجاييه » وقرأ الأول مطالب حكومته وهي تشتمل على اعطاء اليونان ألبانيا وأييرا وتساليا وكريت. فاتفق أعضاء المؤتمر على تقرير جعل المناقشة في مطالب اليونان بين اليونان والدولة العلية نفسها وعلى انه اذا لم يحصل الاتفاق بين الحكومتين على تحديد حدود جديدة بينهما يعرض الأمر عندئذ على الدول الاوروبية وأقروا على تنظيم المقاطعات اليونانية الباقية تحت حكم الدولة العلية على نسق الروملى الشرقى وجعل تنظيمها تحت مراقبة اللجنة الدولية

ولما جاءت مسألة رومانيا أعلن المؤتمر استقلال هذه البلاد كصربيا والجبل الأسود وقرر المساواة التامة بين كل أهاليها على اختلاف دياناتهم. وهذا القرار جاء مفيدا جدا

اليهود الذين أساءت اليهم حكومة رومانيا في معاملتها معهم
كما أساء اليهم أهلها كل الاساءة . وقد سمع المؤتمر
مندوبي رومانيا « المسيو براتينو والمسيو كوجولنيسانو »
كما سمع مندوبي اليونان فطلبوا منه عدم تقرير صالح أى جزء
من أراضى رومانيا وعدم مرور الجنود الروسية في بلادهم
وأن يقرر أن روسيا تدفع غرامة لرومانيا مقابل ما تكبدته
من الخسائر أثناء الحرب . ولكن المؤتمر لم يستطع قبول
هذه الطلبات لما فيها من المساس بمصالح روسيا واكتفى
بتقرير اعطاء رومانيا ألفى كيلومتر مربع فى إقليم الدبروجة
وقد نظر المؤتمر بعد ما تقدم فى مسألة الملاحة فى نهر
الطونة فقرر بقاءها على ما كانت عليه قبل الحرب ومنح النمسا
بعض امتيازات . وقرر المؤتمر فى مسألة الغرامة الحربية عدم
جواز استبدالها بأراض أو ببلاد عثمانية واعتبار روسيا آخر
دائن لتركيا أى أنه لا يجوز لها أن تتقدم فى المطالبة بالغرامة
لحربية قبل الدائنين السابقين لتركيا
أما ما يتعلق بالمسيحيين فى الدولة العلية فقد صرح

مندوبو تركيا بأن دولتهم تحترم كل الديانات في بلادها وتعامل
رعايها على السواء فقرر المؤتمر جعل المساواة في الحقوق بين
المسلمين والمسيحيين تامة وجعل المسيحيين في بلاد الدولة
العلية تحت حماية أوروبا المعنوية

ولم يبق امام المؤتمر بعد المسائل السالفة الذكر الا مسألة
استيلاء الروسيا على بعض بلاد ومواقع في آسيا فتعهدت
الروسيا بالتنازل عن مدينة (بايزيد) للدولة العلية مقابل تنازل
الدولة عن مدينة «خوتور» للعجم وتعدت كذلك بعدم
تخصيص ثغر (باطوم) وجعله ثغراً حراً للتجارة . وقد قرر
المؤتمر أيضاً ان الاصلاحات المزمع اجراؤها في أرمينيا تعرض
على الدول الاوروبية كافة وان حرية بوغازى البسفور
والدردانيل تبقى كما قررتها معاهدة باريس عام ١٨٥٦ ومعاهدة
لوندرة عام ١٨٧١

ولما رأى مندوبو انكلترا ان أعمال المؤتمر قد انتهت
وان الساعة آذنت باعلان استيلاء دولتهم على جزيرة
(قبرص) أعلن الكونت (دي بيكونسفيد) ذلك في ١٨ يوليو عام

١٨٧٨ لاعضاء المؤتمر فاندھش مندوبو الروسي اغاية الاندھاش
وتحقق العالم كله ان انكائرا قد خدعت الدولة العلية ا كبر
خدعة وانه خير لها ان تعتمد على اعدائها من ان تعتمد
على دولة الانكائز . ولم يندھش البرنس (بـمارك) ولا
الكونت (اندارشى) من اعلان الكونت (دى بيكونسفيلد)
استيلاء انكائرا على قبرص لانهما كانا عالمين بالامر ولم يعارضا
فيه لنعهد (بيكونسفيلد) بمساعدتهما في تقرير استيلاء النمسا
على (البوسنه والمهرسك)

وقد طلب البرنس (غورتشا كوف) مندوب روسيا
قبل انقضاء المؤتمر تقرير الوسائل الفعالة التي تستطيع بها دول
أوروبا اجبار تركيا على تنفيذ قرارات مؤتمر برلين واستمرت
المناقشة في هذا الطلب ثلاثة أيام ولكنها انتهت برفضه وخرج
البرنس (غورتشا كوف) من مؤتمر برلين منهزما شرهزيمة
سياسية

وفي ١٣ يوليو عام ١٨٧٨ أمضى مندوبو المؤتمر على
معاهدة برلين وانتهت بذلك جلسات المؤتمر